الذين بكوا أبي

رواية

مدارج

الذين بكوا أبي

رواية

مدارج

عمل روائي متخيّل، وأي تشابه غير مقصود مع أشخاص أو وقائع حقيقية هو محض مصادفة.

إهداء

إلى كل أبٍ أحسن إلى البعيد،

وتعثّر في الكلام مع القريب؛

وإلى كل ابنٍ أعاد قراءة أبيه،

فحفظ من سيرته ما يستحق،

وترك ما لا ينبغي أن يتكرر.

الفصل الأول

الذين بكوا أبي

في جنازة أبي بكى ستة غرباء أكثر مني، وكان كل واحد منهم يحمل مفتاحًا.

رأيت المفاتيح قبل أن أعرف أسماء أصحابها. كانت في أيديهم أو ظاهرة من أظرف صغيرة، تلمع حين تتحرك الأصابع، ثم تختفي. رجل طويل يمسك ظرفه بكلتا يديه، كأنه يخشى أن يسقط منه شيء أثقل من الحديد. امرأة في آخر الصف تضغط مفتاحًا نحاسيًّا في كفها. شاب بثوب رمادي خرج طرف سلسلة زرقاء من جيبه كلما انحنى ليسلم على معزٍّ.

أما أنا فكنت أعد الأشياء التي لا تحتاج إلى حزن: عدد السيارات التي وصلت متأخرة، أكواب الماء الباقية في الصندوق، الرجال الذين سألوا عن الطريق إلى المقبرة مع أن اللوحة أمامهم. منذ توقف قلب أبي في سيارة الإسعاف قبل الفجر، صارت الأرقام أرحم من الكلمات. الرقم ينتهي حين تبلغه، أما الكلمة فتفتح وراءها كلامًا آخر.

كان آخر كلام بيننا قبل موته بيومين عن فاتورة كهرباء المكتب. أرسلها إليّ في صورة مائلة، وسأل إن كانت الزيادة طبيعية. أجبته بعد ثلاث ساعات: «راجع العداد». وضع علامة إعجاب تحت الرسالة، ولم يتصل. كنت قد كتبت بعدها: «كيف صدرك؟» ثم مسحت السؤال قبل إرساله، لأننا منذ سنوات صرنا ندخل إلى الأمور الكبيرة من أبواب صغيرة، ثم نبقى عند الباب. في المقبرة فتحت المحادثة، وبقيت أنظر إلى الفراغ الذي كان يمكن أن تستقر فيه جملة أخرى.

كانت مدينة الساحل وراء سور المقبرة ساكنة على غير عادتها. لم نر البحر، لكن رائحته وصلت إلينا، مختلطة برائحة التراب الرطب. وقف فارس إلى يميني، يجيب عمن يسأل عن موضع العزاء، ويرسل أحد موظفيه ليأتي بكراسٍ إضافية إلى البيت. حين بدأ شراكته مع أبي، كان في عمر يزيد قليلًا على عمري الآن، وكان أصغر من أبي بعامين فقط. عرفته منذ طفولتي ببدلته المحكمة وصوته الذي لا يعلو، حتى في الأيام التي كان يخرج فيها من مكتب أبي غاضبًا.

وضع يده على كتفي بعد الدفن وقال:

ـ اذهب مع والدتك. أنا أنهي ما بقي هنا.

لم أشكره. ولم أعتذر عن الجفاء الذي سمعه في صمتي.

حين استدرت، وجدت الرجل الطويل ينظر إلى القبر. كان يمسح وجهه بكفه، ثم يعيده إلى التراب كأن بينهما حديثًا لم ينته. إلى جواره وقفت امرأة في الخمسين، نحيلة، تحمل حقيبة قماش سوداء ومظروفًا أبيض. لم يقترب أحد منهما مني. ولم أقترب أنا.

◆

امتلأ بيتنا في حي الميناء القديم قبل أن نصل إليه. كان الباب الذي يصر أبي على إصلاحه بنفسه مفتوحًا على آخره، ومقبضه يهتز كلما دخل أحد. جلست أمي خديجة مع النساء في الغرفة الداخلية، وجلست أختي هالة إلى جانبها. أما أنا فبقيت في المجلس الأمامي، أردد الجمل نفسها حتى فقدت معانيها.

أحسن الله عزاءكم.

جزاكم الله خيرًا.

غفر الله له.

آمين.

كان الناس يعرفون من أبي أشياء لا أعرفها. صاحب المخبز قال إنه لم يشتر خبزه بالدين قط، ثم استدرك أن أبي كان يترك ثمن خبز أسر لا يعرف

أصحابها. رجل من البلدية ذكر اعتراضًا كتبه أبي قبل سنوات. بحار متقاعد قال إن سالمًا أعاد إليه ورقة ضاعت منه يوم كان المكتب قرب المرفأ. كل واحد يضع أمامي قطعة من رجل يحمل اسمي ولا يشبه الرجل الذي كنت أختلف معه عند طاولة العشاء.

قبل المغرب بقليل، دخلت هدى. كنت قد رأيتها مرة واحدة في مكتب الشركة. محامية في الأربعين، تحمل ملفاتها كأنها جزء من ذراعها، وتترك للآخرين أن يملؤوا الصمت قبل أن تتكلم.

قالت بعد أن سلمت:

ـ أحتاج عشر دقائق حين يخف المجلس.

بعد أن خف الداخلون، قادتني إلى غرفة الطعام الفاصلة بين مجلس الرجال والغرفة الداخلية. دخل الغرباء الستة من البابين، وبقوا واقفين حول المائدة، لا يتحدث أحد منهم إلى الآخر. المرأة صاحبة الحقيبة السوداء. الشاب ذو الثوب الرمادي. امرأة أصغر سنًّا وضعت نظارة على رأسها. رجل يستعين بعكاز. سيدة تحمل دفترًا بنيًّا إلى صدرها. والرجل الطويل الذي بقي عند القبر.

سألتها:

ـ من هؤلاء؟

قالت:

ـ أشخاص طلب والدك أن يحضروا إذا عجز عن متابعة أمر كان يعمل عليه.

ـ أي أمر؟

نظرت إلى فارس، وكان واقفًا عند الباب يتلقى اتصالًا.

ـ ليس هنا.

كرهت الجواب فورًا. كان أبي يفعل ذلك أيضًا؛ يؤجل الكلام حتى يختار له مكانًا ووقتًا، ثم يمر الوقت ولا يعود أحد إلى السؤال.

قلت:

ـ أبي مات، يا أستاذة هدى. لا أريد جملة أخرى تبدأ بـ«حين يحين الوقت».

لم تغضب.

ـ غدًا في المكتب. أما الليلة فهؤلاء جاؤوا ليثبتوا أن الأمانات ما زالت في مواضعها.

دعتهم واحدًا واحدًا. قالت الاسم، وطلبت من كل واحد أن يُريها المفتاح الذي في عهدته من غير أن يسلمه. كانت تحمل كشفًا صغيرًا، تضع أمام كل اسم علامة ثم تعيد المفتاح إلى صاحبه.

سمية فتحت كفها عن مفتاح نحاسي، ثم أعادته إلى حقيبتها.

حمزة أخرج مفتاحًا بأسنان طويلة، مربوطًا بخيط أزرق، وأبقاه بين أصابعه.

ليان أرت هدى مفتاحًا فضيًّا صغيرًا، وأبقت نظرها في الأرض.

بشير رفع مفتاحًا أسود ثقيلًا، ثم مال على عكازه حتى استقام.

نوال أخرجت مفتاحًا قصيرًا ذا رأس مربع، وقالت إن باب المخزن ما زال مقفلًا به.

لم يقل أحد منهم كلمة ثناء. اكتفى بعضهم بالدعاء، وبكى بعضهم حين نطق اسم أبي. سمية لم تستطع أن تكمل جملة بدأت بها، فوضعت يدها على فمها وجلست. حمزة مسح عينيه بطرف كمه، ثم بدا كأنه ندم أنني رأيته.

أما ليان فظلت مستقيمة الظهر، لكن يدها ارتجفت وهي تعيد المفتاح إلى جيب معطفها. بشير لم يبك أمامي؛ جلس بعيدًا، يضغط كفه على مقبض عكازه، حتى رأيته لاحقًا يمسح تحت عينه وهو يظن أن الناس

منشغلون. نوال فتحت دفترها البني، فرأت شيئًا بين صفحاته وأغلقته سريعًا. لم يكن حزنهم متشابهًا، ولهذا لم أستطع أن أتهمهم بالتمثيل، مع أن جزءًا مني كان يفضل لو استطاع.

بقي الرجل الطويل.

قالت هدى:

ـ قاسم.

فتح يده قليلًا. رأيت رأس مفتاح قديمًا، ذا دائرة عريضة، ثم أغلق أصابعه عليه.

مددت يدي. لم يحرك يده.

قلت:

ـ قالت الأستاذة إن أبي تركه لي.

رفع عينيه إليّ. كان فيهما تعب رجل لم ينم منذ زمن، لا تعب يوم جنازة واحد.

ـ أبوك لم يقل إنه لك.

التفتُّ إلى هدى، فقالت بهدوء:

ـ قال إن قاسم سيعرف متى يسلمه.

ضحكت ضحكة قصيرة لم أحب صوتها.

ـ حتى بعد موته ترك لي اختبارات؟

أعاد قاسم المفتاح إلى جيبه، ونهض.

وقبل أن يخرج قال:

ـ هذا ليس من التركة.

الفصل الثاني

ما تركه سالم

في التاسعة من صباح اليوم التالي كنت أجلس على كرسي أبي في مكتبه، وأشعر أنني أخذت مكانًا لا يخصني.

كان المكتب في طرف حي الميناء القديم، في طابق يطل على مستودعات الملح وسقف سوق السمك. خلف الزجاج ظهرت رافعات المرفأ كأذرع متوقفة في الهواء. لم يغير أبي أثاث الغرفة منذ انتقلت الشركة إلى المبنى قبل اثني عشر عامًا: مكتبة خشبية، خزانة ملفات رمادية، وطاولة اجتماعات صغيرة في أحد أطرافها خدش عميق صنعته وأنا طفل بمفتاح سيارة.

مررت إصبعي على الخدش. لم يصلحه أبي. كان يصلح مقابض الأبواب المتراخية، والمصابيح التي تومض، وأقفال خزائن موظفيه، ويترك هذا الأثر أمامه كل يوم.

جلست هدى قبالتي. وضعت على الطاولة ملفين وكشف الأمانات الذي وقع عليه أصحاب المفاتيح ليلة العزاء. دخل فارس بعد دقائق بقميص أبيض وسترة داكنة، وجلس من غير أن يسأل عن مكانه.

قال:

ـ لن أثقل عليك بالأرقام اليوم.

قلت:

ـ الأرقام أخف من الكلام.

فتح حقيبته رغم قوله، وأخرج ورقة واحدة.

ـ مشروع مبنى المرسى متوقف منذ أربعة أشهر. لدينا التزامات للممول، وعقود مع الموردين، وطلب لإزالة الجزء الخطر من المبنى. سالم أوقف كل شيء بعد حادث العامل.

قالت هدى:

ـ بعد ظهور اختلاف في المواد والسجلات.

أجابها من غير أن يلتفت إليها:

ـ اختلاف تجري مراجعته. لا توجد نتيجة نهائية.

ثم دفع الورقة نحوي.

كان فيها رقم أكبر مما توقعت، وتحته وصف لحصة أبي في الشركة، وضمان قديم يرتبط ببيتنا. قرأت السطر مرتين.

ـ البيت؟

قال فارس:

ـ كان جزءًا من ترتيب التمويل منذ سنوات. ليس أمرًا صنعه سالم هذا الشهر. لكن استمرار التوقف قد يجعل المطالبة به ممكنة.

نظرت إلى هدى. لم تنف الكلام.

ـ كانت والدتك تعرف أصل الضمان. التفاصيل معها.

تضايقت من الجملة أكثر مما ينبغي. كان الجميع يعرفون شيئًا عن حياة أبي، وأنا أصل دائمًا بعد إغلاق الباب.

قال فارس:

ـ أستطيع أن أنهي هذا. أشتري حصة سالم من الورثة بسعر عادل، وأسدد ما يتعلق بها، وأطلب فك ارتباط البيت. ترتاح والدتك، وترتاح أنت وهالة. الشركة تواصل عملها، والناس تحفظ أرزاقها.

فتح صفحة أخرى فيها أسماء ورواتب شهرية.

ـ سبعة وثلاثون موظفًا مباشرًا، وفوقهم عمال الموردين. سالم كان يعرف كل اسم هنا. لو توقف المشروع نهائيًّا فلن تخسر أنت حصة على الورق فقط. ستتوقف أجور، وتُفسخ عقود، ويذهب عمل سنوات.

مررت بصري على الأسماء. كان بينها أشخاص رأيتهم في العزاء، وربما كان بينهم من وقف خلفي في المقبرة. عرف فارس أين يضع الورقة: لم يجعل العرض نجاة لبيتنا وحده، بل بابًا لبيوت كثيرة.

ـ وفي المقابل؟

ـ في المقابل يوافق الورثة على بيع الحصة. لا أكثر.

قالت هدى:

ـ وهذا عرض أولي، لا يملك نادر قبوله وحده. الحصة تدخل في التركة، والبيت تمسّه حقوق والدته، وأي بيع يحتاج تحديد الأنصبة وتوقيع أصحابها.

هدى لم تنظر إليّ. فتحت ملفها وأخرجت ورقة تحمل رقمًا وتاريخًا وختم استلام.

ـ وهناك مطالبة مرتبطة بوفاة محمود نجيب، عامل المشروع. والدك قدم بلاغًا أوليًّا عن تغيير في المواصفات، وطلب حفظ ما بقي في الموقع إلى أن تتم المراجعة.

قال فارس:

ـ والبلاغ لا يثبت شيئًا. سالم كان متأثرًا بموت الرجل، وأفهم ذلك. لكنه خلط أحيانًا بين مسؤوليته الإنسانية ومسؤوليته شريكًا.

ـ وهل دفع لأسرة محمود؟

تبادل هو وهدى نظرة سريعة.

قال فارس:

ـ دفع لأناس كثيرين.

كانت العبارة بسيطة، لكنها وجدت موضعًا قديمًا في صدري. تذكرت أشهرًا خفّضت فيها أمي مصروف البيت، وتذكرت أبي وهو يرفض أن يشرح لي لماذا تأخر إصلاح سيارتها، ثم يخرج في الليل ليقضي حاجة رجل اتصل به.

قلت:

ـ أريد كشفًا بكل ما دفعه.

قالت هدى:

ـ ستراه. لكن لا تخلط بين حسابه الشخصي وحساب الشركة قبل أن نراجعهما.

نهض فارس، وأغلق زر سترته.

ـ خذ أيامك، يا نادر. لكن المدينة وافقت مبدئيًّا على معالجة الجزء الخطر، والعمل قد يبدأ خلال عشرة أيام. بعد ذلك ستتغير قيمة الموقع، وقد لا يبقى عرضي كما هو.

مد يده. صافحته.

كانت يده باردة ثابتة، كأننا أنهينا اتفاقًا لا بدأناه.

◆

حين خرج، دفعت هدى كشف الأمانات نحوي.

قلت:

ـ هل نتوقعين أن أتنقل مع أصحاب المفاتيح من باب إلى باب؟

ـ لن تحمل مفاتيحهم، ولن تفتح شيئًا بدلًا منهم. أصحابها يملكون الوصول، وأنت تقرر بعد أن تسمعهم هل تريد متابعة ما بدأه والدك.

ـ ولماذا جمعهم أبي عند جنازته؟

ـ لأن والدك خشي أن يختفي كل ما جمعه من مكان واحد. طلب منهم الاحتفاظ بالمفاتيح، وطلب مني تسجيل المواضع والنسخ المتاحة. بعضها أوراق يملكها أصحابها، وبعضها سجلات لا تخرج إلا بإذن جهتها. لا تتوقع صندوقًا يحل كل شيء.

فتحت هدى ملفًا رقيقًا وأرتني جدولًا يصف كل موضع وصفًا عامًا: مطالبة سمية ومسودة المخالصة، تذكرة حمولة عند حمزة، نسختا تقرير في المختبر، سجل موقع، ودفاتر محاسبية عند نوال. لم تعرضها كأدلة مكتملة؛ كان كل أصل يحتاج إلى صاحبه أو إلى طلب رسمي.

ـ وجد والدك خزانة مكتبه مفتوحة قبل شهرين، من غير كسر. لم يستطع أن يثبت من دخل، لذلك لم يتهم أحدًا. نسخ ما أمكن، وترك الأصول عند أصحابها أو جهاتها، وسجل عندي أين توجد. كنت وكيلته الشخصية في حفظ هذا الفهرس، ولست محامية الشركة. وبعد وفاته لا أمثل التركة في بيع أو نزاع حتى يفوضني الورثة. اليوم أشرح لك ما سلمني، لا أقرر عنكم.

نظرت إلى خزانة الملفات الرمادية. كان قفلها جديدًا، أفتح من لون المعدن المحيط به. لم أسأل من بدله؛ عرفت الجواب.

ـ نبدأ بسمية. لديها غرفة خياطة قرب سوق الحبال.

ـ أرملة العامل؟

ـ نعم.

ـ لماذا تحتفظ أرملة عامل بوثائق شركة؟

ـ لا تحتفظ بوثائق الشركة. تحتفظ بما يخص زوجها، وبما عُرض عليها بعد موته.

سكتُّ قليلًا، ثم سألت:

ـ وقاسم؟

ـ كان أقرب الناس إلى محمود في الموقع. وهو أكثرهم غضبًا من والدك.

ـ رأيته يبكي عند قبره.

ـ الغضب لا يمنع الحزن.

فتحت دفتر مواعيدها.

ـ سمية تنتظرنا بعد الظهر. وإذا أردت أن تبيع، فبع وأنت تعرف ما تبيعه. هذا كل ما طلبه والدك.

نظرت من النافذة إلى المرفأ. كانت شاحنة تحمل أنابيب طويلة تمر ببطء، ويصرخ خلفها عامل يطلب من السيارات أن تفسح الطريق. عشرة أيام بدت مدة كافية لإنهاء ورقة، وقصيرة لفهم رجل عشت معه ثلاثة وثلاثين عامًا.

حين نهضت، أعادت هدى كشف الأمانات إلى ملفها. لم يكن في جيبي مفتاح، لكنني خشيت أن أصل إلى سمية وفي رأسي حكم جاهز، فأسبق كلامها بما أريد سماعه.

الفصل الثالث

أم محمود

كانت غرفة الخياطة في زقاق لا تدخل إليه السيارة. تركناها عند سوق الحبال، ومشينا بين محال صغيرة تتدلى من سقوفها شباك الصيد وأطواق النجاة. الهواء مالح ورطب، وأصوات الباعة تتداخل مع ضرب مطرقة من ورشة قريبة.

توقفت هدى أمام باب أزرق كُتب فوقه بخط صغير: «سمية للخياطة والإصلاح». دفعت الباب، فاهتز جرس معلق من الداخل.

كانت سمية جالسة خلف آلة خياطة، تثني طرف ثوب مدرسي. نهضت حين رأتنا، ومسحت يديها في مريلتها. لم تكن المرأة التي رأيتها في العزاء تبدو ضعيفة هنا. أشارت إلى كرسيين، ثم عادت فأبعدت عنهما أكياس القماش بنفسها.

قالت لي:

ـ أبوك هو الذي أصر على هذا الاسم.

نظرت إلى اللوحة خلفي.

ـ كنت أريد أن أكتب «خياطة أم محمود». قال: لك اسم، والناس ستتعلمه.

لم أعرف بم أجيب، فقلت:

ـ جئنا للمفتاح.

أخرجته من حقيبتها ووضعته أمامي، ثم أشارت إلى خزانة حديدية قصيرة تحت رف الخيوط.

ـ افتحها أنت.

قالت هدى:

ـ الخزانة لك، يا سمية. افتحيها أنت، ونحن نرى ما تسمحين به.

نظرت سمية إليها لحظة، ثم أخذت المفتاح. بدا الأمر صغيرًا، لكنني فهمت لماذا أصرت هدى. لم يكن موت أبي ينقل إليّ حق فتح كل باب مرّ به.

دارت سمية بالمفتاح مرتين. أخرجت صندوق أحذية، وفيه ملف شفاف ومغلف بني. وضعت الملف على طاولة القص، وأبقت المغلف إلى جانبها.

قالت:

ـ هذا ما طلب الأستاذ سالم أن أبقيه عندي.

كانت الورقة الأولى مسودة اتفاق. مبلغ مقطوع لأسرة محمود، يقابله إقرار بأن دخوله إلى الجزء المغلق من الموقع كان من غير تكليف، وأن الأسرة لا تطالب الشركة بعد ذلك بشيء. في الأسفل مكان لتوقيع سمية، ومكان لتوقيع ممثل الشركة. لم يكن أي منهما موقعًا.

سألتها:

ـ هل كان زوجك في مكان ممنوع؟

ـ كان يعمل حيث قال له مشرفه.

ـ ومن المشرف؟

ـ بشير. وهو الذي يحمل المفتاح الأسود.

قلبت الورقة. على ظهرها كتابة أبي:

> لا أوقّع عنهم، ولا أملك إسقاط حقهم. يُراجع سبب الحادث أولًا.

عرفت خطه من ميل حرف القاف، ومن النقطة التي يضغطها كأن القلم توقف عندها. لم تكن جملة طويلة، ولم يترك تحتها تفسيرًا.

قالت هدى:

ـ وهذه؟

فتحت سمية المغلف البني. ظهرت إيصالات تحويل شهرية، أربعة فقط، خرجت من حساب أبي الشخصي. نظرت إلى الأرقام، ثم إلى تاريخ أول تحويل.

قلت:

ـ بدأ يدفع لكم بعد الحادث بأسبوع.

شدت سمية طرف مريلتها بين أصابعها.

ـ بقي علينا إيجار البيت، ومدرسة البنت، ودين للصيدلية. قلت له لن آخذ ثمن سكوتي. قال: وأنا لم أعرضه. قال إن هذا من ماله إلى أن نعرف ما لنا، وإن حق محمود لا يملكه هو ولا فارس.

كانت تتكلم بلا زينة. لم تقل إن أبي أنقذها، ولم تقل إنه صار لها أبًا. أخرجت من الصندوق دفترًا صغيرًا، وأرتني المبالغ التي صرفتها وما بقي منها.

ـ طلب مني أن أكتب كل شيء. غضبت. قلت له: أتظنني سارقة؟ قال: لا، ولكن المال إذا لم يُكتب أفسد الكلام بيننا.

سمعت في عبارتها صوته، ثم أبعدت ذلك عني. لم آت لأجمع حكمًا جميلة.

سألت:

ـ وهل هذه الغرفة منه أيضًا؟

ـ دفع الإيجار الأول، ثم أقرضني ثمن الآلة. أسدد كل شهر.

أخرجت ورقة أخرى فيها جدول دفعات، وقد شُطب نصفها. بقيت في أسفلها أقساط محددة وتاريخ للدفعة الأخيرة.

قلت:

ـ لماذا لم ترفعي المطالبة من البداية؟

نظرت إليّ نظرة ثابتة.

ـ رفعتها. لكن الورق يمشي ببطء، والبيت لا ينتظر. أبوك لم يقل لي اصبري فقط. سألني: ما الذي يجب دفعه هذا الأسبوع؟

سكتت، ثم دفعت مسودة الاتفاق نحوي.

ـ جاءني فارس مرة. لم يرفع صوته، ولم يهددني. قال إن الشركة فيها مئة بيت، وإن الخطأ إذا صار قضية ضاعت أرزاقهم. سألته: وبيت محمود ماذا يكون؟ قال إن التعويض يحفظه.

ـ وأبي؟

ـ أخذ الورقة، ثم أعادها إليّ بهذا الكلام على ظهرها. بعدها لم يعد فارس.

رن هاتف هدى. خرجت إلى الباب لتجيب. بقيت أنا وسمية أمام صوت آلة خياطة من المحل المجاور.

قالت سمية:

ـ كان أبوك يعرف أنك غاضب منه.

رفعت رأسي بسرعة.

ـ ماذا قال؟

ـ لم يقل لماذا. قال فقط: نادر يرى نصف الأمر، وأنا أخطأت حين تركته يرى النصف وحده.

ضايقني أنه قال لها ما لم يقله لي.

ـ كان يستطيع أن يتصل.

ـ ربما.

لم تدافع عنه. أعادت الإيصالات إلى المغلف، ثم مدت إليّ نسخة من مسودة الاتفاق.

عادت هدى، وطلبت الإذن بتصوير الأوراق. وافقت سمية، على أن تبقى الأصول عندها حتى تطلبها الجهة التي تنظر في الأمر.

وبينما كانت هدى ترتب الصفحات، وقعت عيني على التاريخ أعلى مسودة الاتفاق. سألت:

ـ متى مات محمود؟

قالت:

ـ في السابع عشر من مايو. نُقل إلى المستشفى قبل الفجر، ومات بعد الظهر.

كان محمود في الصورة المعلقة فوق آلة الخياطة يرتدي سترة عمل برتقالية، ويحمل طفلة لا يتجاوز عمرها خمس سنوات. رأيت السترة نفسها في شعار صغير أسفل مسودة الاتفاق.

سألت سمية:

ـ هل رأيتِ موقع الحادث؟

ـ لا. رأيت المستشفى، ثم رأيت كيس ثيابه. قالوا لي أولًا إنه تعثر في مكان لم يكن مأذونًا له بدخوله. بعد يوم جاء عاملان وقالا إنه كان ينقل ما طلبه منه المشرف. لم أعد أعرف أي كلام أصدق.

ـ وأبي صدق أي رواية؟

ـ لم يقل. سأل عن أسماء من كانوا هناك، وكتبها. حين طلبت منه أن يقول لي هل محمود أخطأ، قال: لا أملك أن أريحك بكلمة قبل أن أعرف.

لم تكن الجملة مريحة حقًّا، وربما لهذا بدت أقرب إلى أبي من كل ما سمعته عنه منذ موته.

نظرت إلى الورقة مرة أخرى. كانت المسودة مؤرخة باليوم التالي للحادث، قبل أن يكتمل تقرير الموقع، وقبل أن تُسأل سمية عن روايتها.

طويت النسخة ووضعتها في الملف.

لم تكن الشركة قد عرفت بعد كيف مات محمود، لكنها كانت قد كتبت الرواية التي تريد من أسرته أن توقّعها.

في طريق العودة لم تقل هدى شيئًا. بقيت مسودة المخالصة على ركبتي، وكلما توقفت السيارة عند إشارة رأيت تاريخها أعلى الصفحة من جديد.

الفصل الرابع

الدرج الفارغ

كانت ورشة حمزة عند الطرف الذي ينتهي فيه شارع الميناء إلى مخازن القوارب. لا تحمل لافتة كبيرة، بل دراجة زرقاء معلقة فوق الباب، وتحتها عبارة باهتة: «إصلاح وقطع غيار». وصلنا في الضحى، فوجدناه راكعًا أمام دراجة طفل، يمسك سلسلتها بيد ملطخة بالشحم.

قال للطفل:

ـ جرّبها في الساحة، ولا تنزل بها إلى الشارع.

دفع الطفل الدراجة، ثم عاد بعد دورة قصيرة يضحك. أراد أبوه أن يدفع، فلوح حمزة بيده.

ـ الحساب عند أبيك من المرة الماضية. هذه مني.

التفت إليّ بعد أن خرجا، فرأى نظرتي.

ـ السلسلة لم تحتج إلا إلى شد.

مسح حمزة يديه بقطعة قماش، وأخرج المفتاح الطويل المربوط بالخيط الأزرق.

توقف حمزة عن مسح يديه.

قالت هدى:

ـ نحتاج أن تفتح الدرج بحضورنا.

أشار إلى غرفة صغيرة خلف ستار بلاستيكي. كان فيها مكتب حديدي، وخزانة أدوات، وسرير قابل للطي. اقترب من المكتب وجثا أمام آخر أدراجه. أدخل المفتاح، فدار من غير مقاومة.

سحب الدرج.

كان فارغًا.

لم يقل حمزة شيئًا. مد يده إلى الداخل، وتحسس الجوانب والقاع، كأن الورقة قد تصبح أصغر إذا لمس مكانها جيدًا.

قلت:

ـ ماذا كان هنا؟

ـ ظرف.

ـ ما فيه؟

ـ إشعار استلام حمولة للمشروع. الورقة الأصلية التي تخرج مع الشاحنة. عليها رقم الدفعة واسم المورد.

ـ لماذا كانت عندك؟

اعتدل واقفًا ببطء.

ـ لأني كنت أعمل في المشتريات وقتها. رأيت اسمًا غير الاسم الموجود في الطلب، وصورت الورقة قبل أن أسلمها. بعد الحادث طلب مني الأستاذ سالم أن أبحث عن الأصل. وجدته بين أوراق لم تُرحّل إلى المكتب.

قالت هدى:

ـ ومتى رأيته آخر مرة؟

ـ قبل موت الأستاذ سالم بثلاثة أيام. جاء ليتأكد أن الأصل باقٍ، ووضعناه في ظرف، ثم أقفلت الدرج بهذا المفتاح.

ـ هل توجد نسخة أخرى؟

ـ لا أعرف نسخة غير التي معي.

قالت هدى:

ـ لا تلمس القفل أكثر.

أخرجت هاتفها، وصورت الدرج وحافته والمكتب من الخارج. لم نتصرف كمن وجد جريمة، قالت فقط إن علينا أن نحفظ حال المكان، ثم

طلبت من حمزة أن يذكر كل من دخل الغرفة منذ آخر مرة فُتح فيها الدرج بحضور أبي.

سمى عاملين، وصبيًّا يساعده بعد المدرسة، وصاحب المبنى الذي جاء لإصلاح تسرب ماء. لم يذكر فارس.

طرق الباب رجل ممتلئ يحمل دفتر فواتير. توقف حين رآنا، وقال لحمزة إن إيجار الشهر تأخر للمرة الثانية. نهض حمزة بسرعة وأخذه إلى الخارج. لم نسمع كل الكلام، لكن صوت الرجل ارتفع عند عبارة «وعدتني الخميس»، ثم انخفض بعد أن دفع حمزة إليه مبلغًا من درج النقود.

عاد بعد دقائق، ووضع الإيصال في جيبه من غير أن ينظر إلينا.

قالت هدى:

ـ هل للمالك مفتاح من هذه الغرفة؟

ـ للمحل الخارجي فقط. هذا المكتب ركب الأستاذ سالم قفله بعد أن استأجرت المكان.

لم يكن تأخر الإيجار دليلًا على شيء، لكنه أعطى حاجته شكلًا ورقمًا. رأيت عينيه تذهبان إلى جيبه الذي وضع فيه الإيصال، ثم إلى الدرج الفارغ.

قلت:

ـ وهل كان الدرج مقفلًا كل يوم؟

ـ نعم.

ـ وأنت متأكد من أن الورقة كانت فيه؟

رفع رأسه نحوي.

ـ وضعتها بيدي.

ـ وسبق أن قلت إن عهدة كاملة موجودة، ثم ظهر فيها نقص.

فهم قصدي قبل أن تفهمه هدى. انكمش وجهه لحظة، ثم عاد جامدًا.

قالت هدى:

ـ نادر.

لكنني تابعت:

ـ هدى ذكرت في جدولها واقعة عهدة قديمة. هل تريد أن تخبرني بها، أم أقرأها في سجلات أبي؟

جلس حمزة على طرف السرير القابل للطي. مرر قطعة القماش بين أصابعه حتى التفّت كحبل.

ـ وقعت قبل أربع سنوات أن شحنة أدوات وصلت كاملة، وهي ناقصة.

ـ هل كنت تعرف؟

ـ عرفت بعد العد. قال المورد إن الباقي يصل في اليوم التالي، فسكتُّ حتى لا يظهر أنني وقعت قبل أن أتأكد. كنت يومها أتعاطى حبوبًا وأخاف افتضاح كل شيء.

ـ وأبقاك في العمل؟

ضحك من غير فرح.

ـ لا. أوقفني في اليوم نفسه.

فتح درجًا علويًّا في المكتب وأخرج دفترًا رفيعًا. كانت صفحاته الأولى نسخة من محضر النقص وإفادته، ثم جدولًا بقرض الورشة الذي جاء بعد ذلك بمدة. بقي من القرض سطران لم يشطب عليهما.

ـ قال لي: توقيعك لا يجعل الأدوات موجودة. تكتب ما حدث، وتتحمل ما تقرره الشركة، وإن أردت أن تعالج نفسك فأنا أدلك على من يعينك. العلاج لا يمحو مسؤوليتك.

أغلق الدفتر ووضعه مكانه.

ـ أوقفني، وثبتت الشركة النقص، وتحملت جزئي منه. وبعد سنة ساعدني في استئجار الورشة. القرض مكتوب، والإيجار مكتوب، وكل ما تراه هنا أعرف لمن هو.

قلت:

ـ إلا الورقة التي تركها عندك.

خفض عينيه. لم يدافع عن نفسه.

كانت هدى تفحص صورة مكبرة لحافة الدرج. أشارت إلى القفل.

ـ لا يظهر كسر. إما أنه فُتح بالمفتاح، أو أنه لم يكن مقفلًا كما تذكر. لا نحسم أيهما من صورة.

خرجت إلى الباب. كان الطفل لا يزال يدور بدراجته في الساحة، وأبوه يناديه ليعود. رأيت حمزة في انعكاس الزجاج، واقفًا عند الدرج الفارغ، لا يتحرك.

لم أكن أعرف إن كان حمزة أخطأ في ذاكرته أم أخفى دخول أحد. لكن الدرج لم يحمل أثر اقتحام.

لم يعد الدرج شأن حمزة وحده. كانت يد أخرى قد سبقتنا إلى الورقة، أو أن صاحب المفتاح لم يقل كل ما يعرفه.

قالت هدى ونحن نغادر إننا لن نواجه أحدًا قبل أن تُراجع قائمة الداخلين. طلبت مني ألا أتصل بفارس بشأن الورقة المفقودة. وافقت، ثم نظرت خلفي فرأيت حمزة يقفل باب الورشة مرتين، ويجرب المقبض ثلاثًا.

الفصل الخامس

بيتنا أولى

عدت إلى البيت بعد العشاء، فوجدت أمي تجمع أكواب العزاء من المجلس. كانت هالة تنزع أغطية المقاعد وتطويها. مضى يومان فقط، لكن البيت بدا كأنه تعب من دخول الناس وخروجهم.

قلت لأمي:

ـ اتركيها. تأتي العاملة غدًا.

وضعت كوبًا داخل آخر.

ـ إذا تركت البيت للفوضى ليلة واحدة، احتجت ليلتين حتى أعيده.

كانت عبارتها تصلح لأشياء غير الأكواب، لكنني لم أعلق. أخرجت من حقيبتي صور التحويلات التي رأيناها عند سمية، ووضعتها على الطاولة.

جلست هالة قبل أن تطلب منها أمي. قرأت أول ورقة، ثم الثانية.

قالت:

ـ هذه من حساب أبي.

ـ أعرف.

قالت أمي:

ـ وأنا أعرف.

رفعت رأسي إليها.

ـ تعرفين أنه كان ينفق على أسرة عامل، وتعرفين أن البيت داخل في ضمان، ولم يخطر ببال أحد أن يخبرني؟

سحبت الكرسي وجلست. لم تتخذ هيئة المتهم، وهذا زاد غضبي.

ـ الضمان قديم يا نادر. دخل فيه البيت حين وسع أبوك وفارس الشركة. وقعت معه، ولم يأخذ حقي من وراء ظهري.

ـ ثم جددوه؟

ـ جُدد التمويل أكثر من مرة. آخر مرة طلب مني أن أقرأ الورق وحدي قبل أن أوقع. قرأته وسألت ووافقت.

ـ لماذا؟

ـ لأن الشركة يومها كانت تعمل، ولأن حصتنا لم تكن مقامرة كما تبدو لك الآن.

أشرت إلى التحويلات.

ـ وهذه؟

ـ من حسابه الشخصي. مصروف البيت لم ينقطع، ودين لأحد لم يؤخره من أجلها.

قالت هالة:

ـ رسوم تدريبي دفعها في موعدها. وعندما قلت له إنني أستطيع التأجيل رفض.

قلت:

ـ هذا لا يثبت أنه أحسن الترتيب، بل يثبت أنه كان يحاول الإمساك بكل شيء حتى سقط.

قالت أمي:

ـ مصروف البيت لم ينقطع، وكان يكتب ما يخرج ويرجع إليّ إذا تغير شيء كبير. لكنه تركك أنت وهالة تخمّنان مقدار الضيق، واعترضت عليه في ذلك.

فتحت درجًا قريبًا وأخرجت دفتر مصروف قديمًا. كانت فيه بنود البيت، وأقساط الشركة، ومبالغ صغيرة كتب إلى جوارها أسماء لم أعرفها. أمام كل مبلغ علامة تبين: هبة، قرض، أو حق مؤقت ينتظر التسوية. لم تمنحني الصفحات راحة، لكنها نزعت من يدي تهمة الفوضى السهلة.

ـ لكنه كان يعرف أن المشروع متوقف وأن الضمان قد يُطلب. بيتنا أولى من غرفة خياطة ومن ورشة حمزة.

وضعت أمي كفيها على الطاولة.

ـ بيتنا أولى بحقه، نعم. وحق سمية لا يصير باطلًا لأن لنا بيتًا.

قلت بحدة:

ـ لست أطلب أن يطردها إلى الشارع. أطلب أن يفكر فينا قبل أن يحمل كل مظلمة في المدينة على ظهره.

قالت هالة:

ـ هل كان يفعل ذلك؟

ـ أنت رأيت الناس في العزاء.

ـ رأيت ستة أشخاص، لا مدينة كاملة.

كنت أريد منها أن تغضب معي. كان الغضب، في ظني، أبسط ما يمكن أن نتقاسمه بعد موته. لكنها أعادت الأوراق إلى ترتيبها وسألت:

ـ هل دفع لسمية من مال لا يملكه؟

ـ لا أعرف بعد.

ـ وهل سبب هذه التحويلات توقف المشروع؟

ـ لا أعرف.

ـ إذن أنت غاضب من شيء آخر.

نهضت، وذهبت إلى نافذة المجلس. في الزقاق كان جارنا يغلق باب متجره، ويمرر السلسلة في حلقتين ثم يجرب القفل ثلاث مرات. قلت:

ـ حين تخرجت، عرضت عليّ الجامعة برنامجًا في العاصمة. اعتذرت لأن وضع البيت لم يكن يسمح. سألته يومها: هل نحن في أزمة؟ قال: لا تحمل همًّا لم يأت وقته. وبعد شهر باع سيارته.

قالت أمي:

ـ دفع رسوم هالة الصحية يومها، وسدد جزءًا من دين الشركة من نصيبه.

التفت إليها.

ـ وهذا يؤكد كلامي. لماذا لم يقل؟ كان يمكن أن أقرر وأنا أفهم.

خفضت عينيها إلى الأكواب.

ـ قلت له ذلك. قال إن البرنامج سيأتي غيره، وإنه لا يريد أن تربط مستقبلك بخطأ في الشركة. ظن أنه يحميك من الشعور بأنك مطالب بإنقاذنا.

ـ فتركني أختار على أساس كذبة مريحة.

ـ لم يكذب حين قال إننا نستطيع العيش. لكنه أخفى مقدار الضيق. نعم، أخطأ.

قالتها بلا تردد. سقط جزء من الغضب الذي أعددته لمواجهة دفاعها عن أبي؛ لم تكن تدافع عنه.

أكملت أمي:

ـ أبوك لم يأخذ حقنا سرًّا، لكنه تركنا نخاف من شيء لم يسمح لنا أن نفهمه. لا أريد أن أجعله بعد موته مصيبًا في كل شيء.

جلست هالة إلى جوارها.

ـ وما الذي يريده فارس؟

لم أجب فورًا.

قالت:

ـ نادر؟

ـ عرض أن نبيع نحن الورثة حصة أبي. يسدد ما على الشركة ويطلب فك ارتباط البيت.

ـ ومنذ متى تعرف؟

ـ منذ الأمس.

نظرت إليّ طويلًا، ثم قالت:

ـ فقررت أن تحمينا بالطريقة نفسها.

فتحت فمي، ثم أغلقته. لم تكن الحالتان سواءً؛ كنت أحتاج يومًا لأفهم العرض قبل أن أقلقهما. لكنني سمعت حجة أبي تخرج من رأسي بصوتي.

دفعت أمي الأوراق نحوي.

ـ لا أطلب منك أن تخسر البيت لتثبت أن أباك كان رجلًا صالحًا. ولا أطلب أن تبيع حق أحد لتنقذ صورته. افهم أولًا، ثم قل لنا الثمن كاملًا.

أخرجت هاتفي. كانت هناك رسالة من فارس يسأل إن كنت قد بدأت مراجعة العرض. كتبت له أنني لن أوقع قبل ثلاثة أيام، وأنني أريد نسخة كاملة من الحسابات المتعلقة بالمشروع.

كنت قد قلت في مكتب أبي إن الأرقام أخف من الكلام، وإنني أستطيع حسم البيع سريعًا. وها أنا أمدد قراري ثلاثة أيام لأن الكلام غيّر معنى الأرقام. لم أسمِّ ذلك حكمة؛ كان تأجيلًا، وعليّ أن أتحمل ما يزيده من خطر.

ظهرت علامة القراءة بعد لحظات، ولم يأت جواب.

قالت هالة:

ـ أرسل لنا العرض والديون. لا أريد أن أعرف القرار بعد أن تتخذه.

أرسلت الملفين إلى هاتفها وهاتف أمي. كان الفعل أصغر من أن يسمى إصلاحًا، لكنه كان أول مرة منذ بدأت الأزمة أضع الخبر كاملًا أمامهما قبل أن أعرف كيف سأحلّه.

أرسلت هدى إلينا نموذج تفويض محدود: تمثلنا في حفظ الأوراق وطلب نسخها ومراجعة العرض، ولا تبيع الحصة ولا تسوي مطالبة أحد. قرأناه ووقعناه نحن الثلاثة. بقي قبول البيع محتاجًا إلى إجراءات التركة وتوقيع كل صاحب نصيب.

قالت أمي:

ـ وإذا وجدت أن البيع هو الصحيح، فلن نلومك لأنك لم تصنع لنا بطولة. وإذا وجدت حقًّا لا يجوز بيعه، فلا تخفِ عنا ثمن حفظه.

اتصلت بهدى.

ـ نراجع التقرير التالي غدًا.

قالت:

ـ المختبر في الطرف الشرقي من المدينة. ليان تنتظرنا في العاشرة.

أغلقت الهاتف. بقي المفتاح الفضي عند ليان، وبقي القرار معنا جميعًا.

منحت نفسي ثلاثة أيام للمراجعة الأولى. بعدها إما أن نرد على العرض، أو نطلب مهلة جديدة بدل أن أحوّل صمتي إلى قرار عن الجميع.

الفصل السادس

التقرير الآخر

يقع المختبر في المنطقة الصناعية الشرقية من مدينة الساحل، بعيدًا عن البحر وعن الأحياء التي تحمل أسماء جميلة. الطريق إليه صف من المستودعات المتشابهة، تفصل بينها شاحنات تنتظر دورها، وفي نهايته مبنى أبيض بلا نافذة واحدة في الطابق الأرضي.

كانت ليان تنتظرنا عند الاستقبال. بدت أصغر مما حسبتها في العزاء، أو لعل الحزن أضاف إلى وجهها يومها سنوات ليست من عمرها. ارتدت معطف المختبر فوق ثيابها، وربطت شعرها بإحكام، ولم تمد يدها إليّ بعد السلام.

قالت لهدى:

ـ المدير وافق أن نراجع النسخة الموجودة في الأرشيف بحضوري. لا أصل ورقي يخرج من المبنى اليوم.

قالت هدى:

ـ هذا يكفينا. نحتاج أن نعرف ما هو موجود، ثم نطلب ما يلزم بالطريق المعتاد.

مشينا خلف ليان في ممر تفوح فيه رائحة مواد التنظيف. كانت الأبواب تحمل أرقامًا، وكل نافذة داخلية تكشف أجهزة وشاشات وموظفين يعملون بصمت. لم أحاول فهم الآلات. أنا أثق بالرقم إذا عرفت من أدخله، ومتى تغير، ومن استفاد من تغيره.

توقفت عند باب صغير في آخر الممر. أخرجت ليان المفتاح الفضي الذي أرتنا إياه ليلة العزاء. أدخلته في قفل خزانة داخل غرفة الأرشيف، لا في الباب. كانت الخزانة تحتوي صفوفًا من الملفات المرتبة بحسب الأشهر.

سحبت ملفًا رماديًّا، ووضعته على الطاولة.

قالت:

ـ هذه النسخة التي بقيت هنا. والنسخة التي وصلتني من ملف الشركة وجدتها مختلفة.

فتحت الملف عند صفحة عليها رقم عينة وتاريخ واسم مشروع مبنى المرسى. أخرجت هدى من حقيبتها صورة التقرير الذي كان في أوراق أبي. وضعت الورقتين جنبًا إلى جنب.

كانت الأرقام متطابقة في أعلى الصفحة: رقم العينة، وقت الاستلام، اسم الجزء المرتبط بها. وفي الجدول أسفلها اختلفت خانة واحدة. لا أعرف ما تعنيه وحدتها، لكن اللون الأحمر في النسخة الأصلية والعبارة المطبوعة

تحتها لم يحتاجا إلى متخصص: «لا تستوفي القيمة الحد المعتمد، وتلزم المراجعة قبل استمرار العمل في الجزء المرتبط».

أما نسخة الشركة فكانت القيمة فيها أعلى، والعبارة الأخيرة: «مقبولة».

سألت:

ـ أيهما خرج من الجهاز؟

قالت ليان:

ـ هذه.

وضعت إصبعها على النسخة الحمراء.

ـ ومن كتب الأخرى؟

سحبت يدها.

ـ ورد طلب لمراجعة تعريف العينة. قيل إن الرقم أُلصق على مادة أخرى بالخطأ. أعدت إصدار التقرير بعد تغيير التعريف في النظام.

ـ هل كان خطأ؟

ـ لم يكن لدي ما يثبت أنه خطأ.

ـ ومع ذلك غيرته.

ـ نعم.

قالتها من غير التفاف. ثم أغلقت الملف نصف إغلاق، كأن اعترافها شيء تريد أن يبقى بين الغلافين.

سألت هدى:

ـ من طلب التعديل؟

ـ وصل الطلب من جهة المشروع عبر مشرفي. لم يكن باسم شخص واحد.

ـ وهل بقي الطلب؟

ـ بقي سجل وصوله، وقد توجد نسخة عند الإدارة. لكنني لا أقول إن شخصًا بعينه أمر بالتغيير حتى أرى الورقة.

كانت دقتها تزعجني، ثم أدركت أنها الشيء الوحيد الذي يجعل كلامها نافعًا. لم تكن هنا لتكمل قصتنا؛ كانت تحاول ألا تزيد جملة على ما تستطيع إثباته.

قلت:

ـ وماذا فعل أبي؟

نظرت إلى التقرير.

ـ جاء بعد الحادث بأيام، ومعه نسختان. سألني: أيهما نتيجتك؟ قلت إن النتيجة الأولى خرجت كما هي من الجهاز، والثانية أصدرتها أنا بعد طلب المراجعة.

ـ ثم؟

ـ قال إن عليّ أن أكتب هذا، باسمي وتاريخه. لم يقل لي إن الأمر بسيط. ولم يقل إنه سيحذف اسمي.

سكتت قليلًا، ثم أضافت:

ـ كانت الشركة تريد مخاطبة المختبر بأن الخطأ مني وحدي، وأنني بدلت العينة من تلقاء نفسي. رفض الأستاذ سالم أن يوقع الخطاب. قال إن خطئي لا يمحو الطلب الذي وصل إليّ، وإن الطلب لا يمحو مسؤوليتي عن الموافقة.

قلت:

ـ فخماك.

ـ لا. لو أراد حمايتي لطلب محو اسمي. هو منعهم من وضعي وحدي في الواجهة، وطلب مني أن أثبت ما فعلت.

دخل موظف يحمل سجلًا كبيرًا، ووضعه أمام ليان بعد أن وقعت على استلامه. فتحته عند التاريخ نفسه. كان فيه رقم التقرير الأول ووقت إرساله

والجهة التي تسلمته. صورت هدى الصفحة بعد موافقة الموظف، ثم سجلت اسمه وموضع السجل.

قلت:

ـ هل يكفي هذا لإثبات أن المادة التي انهارت هي نفسها؟

قالت هدى:

ـ لا. يثبت أن هناك نتيجتين لعينة واحدة، وأن الأصل لم يجتز المطلوب. ربط العينة بالموضع في المبنى يحتاج سجل الموقع وفحصًا من مختص.

قالت ليان:

ـ المفتاح الأسود عند بشير يفتح غرفة الخدمة. كانت سجلات الصب تحفظ فيها قبل أن تنقل إلى المكتب.

أعدنا الأوراق إلى الخزانة، وأقفلتها ليان. وقبل أن نخرج، طلبت منها هدى نسخة رسمية بالطريق الذي يسمح به المختبر. قالت إنها ستبدأ الطلب، لكنها لا تضمن متى يكتمل.

عند الباب الخارجي توقفت ليان، ثم قالت:

ـ الإفادة التي كتبتها بعد الحادث بقيت عند مديرة المختبر. لم أكن مستعدة يومها أن أتكلم أمام الإدارة، لذلك سجلت ما حدث ووقعت عليه. إن جاء طلب رسمي فلن أعتمد على ذاكرتي وحدها.

قالت هدى:

ـ وهل وقعتِ عليها؟

ـ نعم. باسمي، لا باسم الأستاذ سالم.

مضت إلى الداخل، وبقيت أنظر إلى النسختين المصورتين على شاشة هدى.

لم يكن التقرير يقول من غيّر المادة، ولا من أبقى العمل جاريًا. لكنه كان يقول إن التحذير وصل إلى جهة المشروع قبل الحادث بأربعة أيام.

كان التحذير قد وصل، ثم استمر العمل في مكان قالت الأوراق إنه منفصل عن موضع الخطر.

في السيارة كتبت التاريخين على ورقة واحدة: وصول التحذير، ثم سقوط محمود. تركت بينهما أربعة أسطر فارغة. كانت مهمتنا التالية أن نعرف ماذا حدث فيها، ومن كان يملك أن يوقف العمل ولم يفعل.

الفصل السابع

الهاتف القديم

في صباح اليوم الرابع اتصلت هدى قبل أن أخرج من البيت.

قالت:

ـ حمزة وجد هاتفًا قديمًا كان يستعمله وقت عمله في المشتريات. يقول إن فيه المحادثة التي أرسل عبرها صورة تذكرة الحمولة إلى والدك.

ـ يقول الآن؟

ـ نعم.

ـ بعد أن وجدنا الدرج فارغًا؟

ـ الشك مفهوم، لكنه ليس نتيجة. سنذهب إليه.

كانت هذه طريقتها في منعي من القفز: لا تقول إنني مخطئ، بل تسحب الكرسي الذي أريد أن أقفز منه.

وصلنا الورشة قبل الظهر. كان حمزة وحده، وقد أغلق الباب نصف إغلاق. وضع هاتفًا قديمًا على المكتب، شاشته مشققة من الزاوية، وبجانبه شاحن ثُبِّت سلكه بشريط لاصق.

قال بسرعة:

ـ لم أفتحه منذ أرسلت الصورة قبل ثلاثة أشهر. تذكرت أنه بقي في صندوق قديم، وشحنته من غير أن أدخل إلى المحادثة.

جلست هدى، وطلبت منه ألا يلمس الشاشة. صورت حال الهاتف والوقت الظاهر عليه، وكتبت قوله إن المحادثة ما زالت فيه من غير أن تتحقق منها بنفسها. نفذ ما طلبت، لكنه كان ينظر إليّ لا إليها.

قلت:

ـ ولماذا لم تتذكره أمس؟

ـ لأنني حين رأيت الدرج فارغًا لم أتذكر حتى أين وضعت مفاتيح بيتي. رجعت في الليل وفتشت الصناديق.

ـ وحدك؟

ـ وحدي.

كان جوابه سريعًا أكثر من اللازم. رن هاتفه الآخر في جيبه، فنظر إلى الاسم وأغلق الصوت من غير أن يجيب.

وضع حمزة الهاتف في كيس توثيق مرقّم، ووقع على وصف حاله. نقلناه إلى مختص توثيق رقمي نتعامل معه هدى، أنشأ نسخة للقراءة وسجل

بياناتها، ثم أعاد الجهاز في كيسه المختوم. عندئذ فقط فتحنا النسخة المستخرجة من المحادثة. كان اسم أبي محفوظًا: «الأستاذ سالم». ظهرت صورة ورقة مطوية على منضدة، أرسلها حمزة قبل ثلاثة أشهر، ثم رسالة من أبي: «احتفظ بالصورة، وابحث عن الأصل من غير أن تنقل الورق من موضعه حتى نتأكد». لا شرح آخر.

كبر المختص الصورة المستخرجة. ظهر اسم المورد: «متانة الساحل للمواد». وتحت الاسم رقم شاحنة، ورقم دفعة، وتاريخ يوافق الأسبوع الذي سبَق الحادث.

أخرجت هدى نسخة من الطلب الأصلي الذي أحضرته من ملف الشركة.

قالت:

ـ المورد المعتمد هنا هو «البنيان للمواد».

قال حمزة:

ـ لهذا صورتها. المورد تغير، لكن إشعار التغيير لم يصل إلى المشتريات بالطريق المعتاد.

ـ من سمح للشاحنة بالدخول؟ سألت.

ـ سجل البوابة وسجل الدفعات يبينان ذلك. أنا رأيت الورقة بعد التفريغ، لا عند الدخول.

ـ وهل تعرف صاحب متانة الساحل؟

ـ لا. شركة صغيرة ظهرت في ذلك الشهر. قيل لنا إن المورد الأول تأخر، وإن المشروع لا يحتمل الانتظار.

ظهرت في النسخة المستخرجة طلبات قطع غيار وأرقام مخازن، ثم صورة التذكرة من زاويتين. في الصورة الثانية كان طرف ختم واضحًا، وفي أعلاها وقت الإرسال. احتفظ حمزة بالجهاز مختومًا إلى أن يرد طلب رسمي، وأخذت هدى نسخة التوثيق وإيصال المختص.

أعدت النظر إلى الصورة. لم تكن أصلًا، ويمكن لأي طرف أن يناقشها أو يقول إنها لا تخص الجزء الذي انهار. لكنها أعطتنا اسمًا ورقمًا وتاريخًا. لأول مرة خرج الأمر من خانة نتيجة تغيرت داخل مختبر إلى حمولة دخلت موقعًا باسم مورد لم يكن في العقد.

قالت هدى:

ـ الصورة تقودنا إلى السجلات، لكنها لا تقوم مقام الأصل.

قلت لحمزة:

ـ الأصل الذي كان عندك.

ـ نعم.

ـ ثم اختفى.

ـ نعم.

ـ ولم ينكسر القفل.

شد فكه.

ـ قلت لك إن المفتاح كان معي.

ـ وقلت إن أبي وثق بك.

ـ لم يقل ذلك.

فاجأني رده.

أكمل:

ـ أنت تقولها. هو لم يعطني الدرج ويغلق عينيه. صوّر الورقة، وأخبر الأستاذة هدى بوجودها، وكتب أين الأصل. جعلني مسؤولًا عنه، لكنه لم يجعل القضية كلها في يدي.

ـ بعد أن وقعت استلام ما لم يصل وسكتَّ.

ـ بعد أن كتبت ما حدث وتحملت ما قررته الشركة.

نهض وأخرج الدفتر الرفيع. فتحه عند الجدول، ووضع إصبعه على آخر سطرين.

ـ هذان الباقيان من قرض الورشة. واقعة العهدة بقيت في سجلي، والقرض بقي دينًا. بعد سنة أعطاني عملًا بعيدًا عن الاستلام، ثم ساعدني في هذه الورشة.

كانت أنفاسه أسرع، ثم هدأت. أعاد الدفتر إلى مكانه.

قالت هدى:

ـ حدثنا عن ذلك اليوم بقدر ما يتصل بالمفتاح.

جلس مرة أخرى.

ـ كنت أتعاطى حبوبًا، وأكذب على كل من يسألني. وصلت شحنة ناقصة ووقعت أنها كاملة، ثم سكت حين لم يصل الباقي. اكتشف الأستاذ سالم الفرق في الجرد. أخرجني من العمل، وطلب أن أكتب متى عرفت ولماذا سكت. دخلت برنامج علاج، وتحملت ما قررته الشركة، وعملت أشهرًا في مخزن بعيد عن الاستلام. بعد سنة أقرضني ثمن بعض الأدوات، ولم يسجل الورشة باسمه.

قلت:

ـ ثم أعاد إليك ورقة يمكن أن تهدم شراكته.

ـ أعاد إليّ عملًا أعرفه. وكان يسأل عنها. آخر مرة جاء قبل موته بثلاثة أيام.

ـ ماذا أراد؟

ـ تأكد أن الأصل موجود. قلت له موجود. قال إن المراجعة اقتربت، وإن هدى ستخبرني متى أسلمه.

نظر إلى الدرج، ثم إليّ.

ـ إذا أردت أن تقول إنني خنته، قلها بعد أن تعرف. أنا نفسي لا أعرف كيف خرجت الورقة.

رن هاتفه ثانية. هذه المرة ظهر القلق في وجهه قبل أن يقلبه على الطاولة. لم أسأله عن المتصل. كان لدي ما يكفي من الشك، وليس لدي شيء يثبت وجهته.

أضافت هدى إيصال النسخة المستخرجة إلى ملفها، وكتبت رقم الشاحنة على ورقة مستقلة.

قالت:

ـ غدًا نبدأ بطلب الوصول إلى سجل الموقع مع بشير. إذا ظهر رقم الشاحنة ورقم الدفعة هناك، نعرف أين استُعملت الحمولة. أما اسم المورد فسنتتبع أوراقه لاحقًا.

وقفت عند الباب. في الخارج كان الطفل نفسه يقود دراجته الزرقاء، لكنه هذه المرة توقف ونزل قبل الشارع كما قال له حمزة.

لم أعرف بعد هل فتح حمزة الدرج بنفسه أم سمح لغيره بالدخول. لكن النسخة المستخرجة حفظت رقم الشاحنة كاملًا، وتحته اسم لم يرد في طلب الشراء الأصلي.

الفصل الثامن

غرفة الخدمة

كان مبنى المرسى يقف عند نهاية الواجهة القديمة كهيكل نسيه أصحابه. أحاطه سياج معدني مرتفع، وغطت الشبكة الخضراء طوابقه السفلى، لكن الجزء العلوي ظل ظاهراً: أعمدة بلا جدران، وسلالم تتوقف عند الهواء، ورافعة ثابتة امتد ذراعها فوق الشارع.

وصلنا بعد السابعة بقليل. كان بشير ينتظر عند البوابة، متكئًا على عكازه، وإلى جانبه امرأة قدمتها هدى باسم المهندسة نجلاء. قالت إنها ستراجع السجلات والمواضع معنا، وإن وجودنا داخل الموقع سيبقى في المسار الذي وافقت عليه الجهة المشرفة. لم تشرح أكثر، ولم أسأل. كنت قد تعلمت من هدى أن كثرة الكلمات القانونية لا تمنحني حقًّا زائدًا.

وقف عند البوابة رجل من الشركة اسمه مازن. رأيته من قبل يخرج من مكتب فارس. حمل خوذًا وسترات عاكسة، ووزعها علينا وهو يقول:

ـ الدخول إلى غرفة الخدمة فقط. الجزء الداخلي غير آمن، وأي خروج عن الممر المحدد ينهي الزيارة.

قالت هدى:

ـ هذا ما اتفقنا عليه.

نظر إليّ مازن.

ـ الأستاذ فارس يفضّل أن تكون مراجعة الملفات في المكتب. نقل السجلات من هنا سيكون أسلم.

قلت:

ـ وإذا كانت السجلات لم تُنقل بعد، نراها حيث هي.

لم يجادل. فتح البوابة، ومشى أمامنا.

كان الصمت داخل الموقع مختلفًا عن صمت الشارع. قطع حديد مربوطة، أكياس ممزقة، خوذتان على رف قرب مدخل العمال، وكوب ورقي بقي على حافة نافذة لم تُركب. في منتصف الساحة حُجب جزء من المبنى بألواح خشبية. لم أحتج إلى سؤال لأعرف أن الحادث وقع خلفها.

توقف بشير لحظة، ثم أكمل سيره. كان عكازه يطرق الأرض بإيقاع بطيء.

قلت:

ـ إصابتك من الحادث؟

ـ نعم.

ـ كنت مع محمود؟

ـ كنت أقرب منه بثلاثة أمتار.

لم يزد. وصلنا إلى باب رمادي تحت الدرج الخارجي، وأخرج المفتاح الأسود. احتاج أن يرفعه قليلًا حتى يدخل في القفل، ثم دفع الباب بكتفه. خرجت رائحة ورق رطب وغبار.

كانت الغرفة ضيقة، فيها لوحة كهرباء، رفوف أدوات، وخزانة معدنية طويلة. المفتاح نفسه فتح الخزانة. رفع مازن يده فورًا.

ـ لا يلمس أحد شيئًا قبل أن نصور الوضع.

سبقت هدى إلى الموافقة. صورت نجلاء الرفوف، ثم ارتدت قفازين وأخرجت ثلاثة سجلات كبيرة وملف خرائط ملفوفًا. جلست على صندوق مقلوب وبدأت تقارن الأرقام.

أعطيتها هدى رقم الشاحنة ورقم الدفعة من صورة حمزة. مررت نجلاء إصبعها على صفحات سجل الدخول حتى توقفت.

ـ الشاحنة دخلت في السادسة واثنتين وعشرين دقيقة صباحًا. المورد المكتوب هنا «متانة الساحل».

قال مازن:

ـ سجل البوابة يثبت الدخول، لا ما كان داخل الشاحنة.

قالت نجلاء:

ـ صحيح.

لم تنزعج من اعتراضه، وكتبت ملاحظته في ورقتها. فتحت سجلًا ثانيًا فيه أرقام الدفعات والمواضع التي استخدمت فيها. كان الخط متغيرًا بين الصفحات، وكلمات كثيرة مختصرة لا أفهمها.

مال بشير نحوها، وأشار إلى سطر.

ـ هذا خطي. تسلمت الدفعة، ووزعناها على الجزء الشرقي والدرج الرابع.

سألته نجلاء:

ـ هل الرقم نفسه؟

قرأه مرتين، ثم أومأ.

فتحت مخططًا، وطابقت الرمز الموجود في السجل مع مساحة محددة قرب الدرج. ظلت ساكتة وقتًا أطول مما احتملت.

قلت:

ـ هل هذا موضع الانهيار؟

ـ يدخل ضمنه، لكن السجل وحده لا يكفي. نحتاج أن يراجع المختص ما بقي من الجزء، وأن تؤخذ العينات بالطريقة المعتمدة. دوري الآن أن أثبت أن هناك صلة تستحق الفحص.

قال مازن:

ـ وقد تكون الدفعة استعملت في أكثر من موضع، وقد يكون سبب الحادث شيئاً آخر.

قالت:

ـ لهذا قلت: تستحق الفحص.

كان كل طرف يضع قدمه في موضع لا يستطيع الآخر دفعه منه. تمنيت للحظة لو كانت الحقيقة جملة واحدة، لا هذا الطريق من «قد» و«يحتاج» و«لا يكفي».

◆

طلبت نجلاء من بشير أن يشرح حركة العمل يوم الحادث. وقف أمام المخطط، ووضع إصبعه عند مدخل جانبي.

ـ وصلنا تعميم بالتوقف عن العمل على الدرج، لكن نقل الأدوات من الممر استمر. في الظهر طلب مني مسؤول التنفيذ أن نفرغ المكان استعداداً للمراجعة. أرسلت محمود ورجلين ليحملا الدعامات الخفيفة من هنا.

ـ هل كان الجزء ممنوعاً؟ سألت هدى.

ـ الدرج نفسه نعم. الممر قيل لنا إنه آمن.

ـ من قال؟

نظر إلى مازن، ثم إلى الأرض.

ـ جاءني الاتصال من المكتب. الاسم مكتوب في إفادتي الأولى.

قال مازن:

ـ لا نناقش الإفادات هنا.

هزت هدى رأسها.

ـ لن نناقشها. نحتاج فقط ألا نتغير الرواية بسبب وجودنا.

سألت بشير:

ـ لماذا قالوا إن محمود دخل من غير تكليف؟

قبض على مقبض عكازه.

ـ لأنني حين خرجت من المستشفى كانت الإفادة مكتوبة بهذه الصورة. قالوا إنني مصاب، وإنهم سيكملونها من سجل الدوام. رفضت التوقيع.

ـ وأبي؟

ـ جاءني في المستشفى. كنت أظنه سيطلب مني حماية الشركة. قلت له قبل أن يبدأ: أنا الذي أرسلت محمود. إذا أردتم رجلًا يحمل الخطأ، فابدؤوا بي.

ـ ماذا قال؟

ـ سألني: هل أرسلته إلى الدرج أم إلى الممر؟ قلت إلى الممر. قال: اكتب هذا، واكتب ممن أخذت الأمر، ولا تزد شيئًا لتبرئ نفسك ولا لتنقذ أحدًا.

رفع رأسه إليّ.

ـ لم يقل إنني بريء. وأنا لا أقولها.

كان في كلام كل واحد منهم موضع يمكن لفارس أن يطعن فيه: حاجة سمية، وموافقة ليان على التغيير، وسجل حمزة القديم والورقة التي خرجت من عهده، وقرار بشير بإرسال محمود إلى الممر. ولم يكن أيٌّ منهم يملك السجلات كلها.

رن هاتفي. كان فارس.

خرجت إلى الممر المحدد وأجبت.

قال:

ـ بلغني أنك في الموقع.

ـ بعلم من يلزم.

ـ لم أقل إنك اقتحمته. أقول إنك تجمع نصف وقائع وتبني منها اتهامًا كاملًا.

ـ لم أتهمك.

ـ لكنك تعامل كل ورقة كأن سالم ترك فيها حكمًا نهائيًّا. والدك كان طرفًا في القرارات يا نادر، لا مراقبًا نزل من السماء بعد الحادث.

صمتُّ.

قال:

ـ تعال إلى مكتبي غدًا. قبل أن تضع اسمي في جهة، انظر إلى توقيع أبيك في الجهة الأخرى.

أغلق المكالمة قبل أن أسأله عما يعني.

عدت إلى الغرفة. كانت نجلاء تضع علامة إلى جانب السطر الذي يحمل رقم الشاحنة. صورت الصفحة والمخطط، ثم أعادت كل شيء إلى موضعه، وأقفلت الخزانة بحضورنا.

قالت لهدى:

ـ الرقم يربط الدفعة بالجزء المنهار بما يكفي لطلب فحص يثبت الصلة أو ينفيها. وما زاد على ذلك يحتاج إلى عمل آخر.

في الخارج وقفت أمام الألواح التي تحجب موضع الحادث. لم أر خلفها، ولم أطلب أن أرى. كان لدي الآن خط يصل بين صورة في هاتف قديم، وتقرير مختلف، وسطر في غرفة خدمة.

لكن فارس ترك أمامي خطًّا آخر، ينتهي عند توقيع أبي.

الفصل التاسع

دفتر نوال

لم أذهب إلى فارس في صباح اليوم التالي. طلبت من هدى أن نرى نوال أولًا. قالت إن فارس سيفهم التأجيل على أنه اتهام، فقلت إنني أريد أن أدخل مكتبه وفي يدي سؤال، لا في رأسي خوف.

كانت نوال تسكن فوق متجر قديم للقرطاسية في شارع البريد. لم نذهب إلى بيتها، بل قادتنا إلى مخزن صغير في الطابق الأرضي، استأجرته باسمها بعد أن تركت الشركة. فتحت بالمفتاح ذي الرأس المربع بابًا داخليًّا، ثم أضاءت مصباحًا أصفر كشف خزائن أرشيف وأكوام صناديق.

قالت قبل أن نسأل:

ـ هذه ليست أوراقًا سرقتها. كانت نسخ مراجعة في عهدتي، وكتبت للشركة أنني أحتفظ بها حتى تنتهي التسوية. عند هدى نسخة من الخطاب.

قالت هدى:

ـ صحيح.

مشت نوال إلى خزانة في آخر الغرفة. أدارت قرص قفلها إلى ثلاثة أرقام كتبتها في خطاب الحيازة، ثم أخرجت دفترها البني الذي رأيته في العزاء، ووضعته إلى جانب ملفين.

كان كلامها سريعًا، كأنها تخشى أن يقاطعها أحد قبل أن تصل إلى آخره.

ـ عملت في الحسابات سبع سنوات. تغيير المورد وصلني على أنه إجراء عاجل لأن «البنيان للمواد» لن تلتزم بالموعد. أنشأت ملف «متانة الساحل» وصرفت الدفعة الأولى بعد موافقات موجودة في النظام. لم أختر المورد ولم أفحص مادته.

قلت:

ـ لكنك دفعت له.

ـ نعم.

فتحت الملف الأول. كان فيه طلب الشراء الأصلي، ثم إشعار إلغائه، ثم طلب بديل بالقيمة نفسها تقريبًا. تحت طلب البديل توقيعان لم تسمح لي هدى أن أتوقف عندهما طويلًا.

قالت:

ـ نراجع التسلسل أولًا.

قلبت نوال الصفحات إلى تحويل الشركة إلى متانة الساحل. ثم أخرجت كشف تسوية أرسله المورد حين طلب تعديل قيمة التوريد، وقد فصّل فيه نفقاته كما قدمها هو للشركة. كان بين بنوده مبالغ قال إنه دفعها إلى شركة اسمها «مدار الخدمات» تحت وصف استشارة توريد. لم يكن الكشف حسابًا مصرفيًّا للمورد، بل مستندًا قدمه المورد نفسه لتبرير طلبه.

قلت:

ـ ما المشكلة في شركة استشارية؟

ـ أن ملف التسوية لا يحمل تقرير خدمة ولا عقدًا يشرحها. فقط فاتورة من سطر واحد أرفقها المورد.

ـ ومن يملكها؟

ـ لا أعرف ملكيتها على الورق. لكن رقم التواصل في الفاتورة كان رقم عدنان البحري.

عرفت الاسم. عدنان شقيق زوجة فارس، يظهر في مناسبات العائلة، ويجلس دائمًا قريبًا منه في حفلات الشركة.

قالت هدى:

ـ معرفة الرقم قرينة نتحقق منها، وليست إثباتًا للملكية أو للمنفعة. سنطلب ما يمكن طلبه من السجلات.

هزت نوال رأسها.

ـ هذا ما قاله الأستاذ سالم أيضًا.

فتحت دفترها عند صفحة وضعت بينها ورقة زرقاء.

ـ حين رأى كشف التسوية، قال: لا تقولي إن المال عاد إلى فارس. قولي إن المورد قدّم فاتورة مرتبطة برقم تعرفينه، ثم تحققي ممن يملك الجهة وهل دُفعت الفاتورة فعلًا. كنت غاضبة، وقلت له إن الجميع يعرف عدنان. قال: ما يعرفه الجميع لا يدخل الحساب حتى يُكتب.

لمعت عيناها، لكنها عادت إلى الأرقام.

كان في الصفحة قيد أُضيف ثم عُكس: «فروق توريد واستشارة». إلى جواره الأحرف الأولى من اسم نوال وتاريخ التصحيح.

سألتها:

ـ لماذا تركت الشركة؟

ـ لأنهم طلبوا مني توقيع مذكرة تقول إنني أنشأت المورد وأخطأت في ربط حسابه، وإن التحويل الثاني تكرار محاسبي. كنت قد أدخلت القيد فعلًا، ولذلك استطاعوا أن يجعلوا القصة قريبة من التصديق.

ـ وهل وقعت؟

ـ وقعت النسخة الأولى، ثم قدمت في اليوم نفسه اعتراضًا مكتوبًا يسحب موافقتي على مضمونها. بقيت النسختان في الملف.

ـ بعد أن كلمك أبي؟

ـ بعد أن طلب مني أن أقرأ الجملة بصوت مرتفع. حين قلت: «قمت بإنشاء المورد من غير توجيه»، سألني: هل هذه حقيقة؟ قلت: لا. قال: إذن لا تجعلي خوفك توقيعًا يعيش بعدك.

سألتها:

ـ ولماذا حملت الدفتر البني إلى العزاء؟

ـ لأن فيه التواريخ التي كتبتها يومًا بيوم. خفت أن أنساها، وخفت أكثر أن أتذكرها كما يناسبني بعد موت الأستاذ سالم. أردت أن أعطيه لهدى، ثم تذكرت أن فيه حسابات موظفين لا علاقة لهم بالقضية.

فتحت الصفحة الأولى. كان أبي قد كتب في أعلاها: «لا يُصوَّر إلا ما يتصل بالواقعة».

قالت هدى:

ـ وطلب منك أن تثبتي الجزء الذي فعلته أنت أيضًا.

ـ نعم. كتبت أنني صرفت الدفعة قبل اكتمال ملف المورد، وأنني قبلت التوجيه الشفهي لأن المشروع كان مستعجلًا.

نظرت إليّ.

ـ أثبتُّ أنني صرفت قبل اكتمال الملف. واعترضت على الجملة التي تقول إنني اخترعت المورد من نفسي.

◆

بعد أن انتهينا من دفاتر نوال، فتحت هدى ملفًا منفصلًا سلّمه لها أبي في حياته، وفيه كشوف حسابه الشخصي وحركة حصته من الأرباح. كانت التحويلات إلى سمية ظاهرة، وكذلك أتعاب خبير مستقل، وإيجار غرفة الخياطة الأول، وقرض ورشة حمزة.

قلت:

ـ هذه المبالغ خرجت بينما المشروع متوقف.

قالت هدى:

ـ خرجت من حسابه الخاص. أما الضمان الذي يهدد البيت فسببه تمويل الشركة القديم وتعطل المشروع، لا هذه المبالغ وحدها.

ـ لكنها قللت ما يملكه لمواجهة الدين.

ـ نعم.

كان أبي يستطيع الاحتفاظ بماله، وربما كان ذلك سيمنحنا وقتًا أطول. لكنه دفع لأسرة محمود ولخبير يريد فحص السبب، فبقي في حسابه أقل مما كان يستطيع أن يواجه به الدين.

قلبت الصفحات حتى وصلت إلى طلب المورد البديل. هذه المرة قرأت التوقيعين. الأول لمدير المشروع. والثاني لأبي.

شعرت أن الغرفة ضاقت.

قلت:

ـ هذا توقيعه.

قالت نوال:

ـ نعم.

ـ وافق على متانة الساحل؟

ـ وافق على اعتماد مورد بديل وفق الشروط المكتوبة. ما حدث بعد ذلك ليس عندي كاملًا.

كانت هناك عبارة صغيرة تحت التوقيع: «مع الالتزام بالمواصفة المعتمدة وإتمام الفحص قبل الاستخدام». قرأتها مرتين. لم تبرئه؛ فقد فتح الباب للمورد. ولم تدنه بتغيير المادة؛ فقد وضع شرطًا لم يُحفظ.

أخذت هدى صورًا وفق ما سمحت به نوال، وسجلت موضع الأصول. قبل أن نخرج، أعادت نوال المفتاح ذا الرأس المربع إلى حقيبتها.

سألتها:

ـ ألم يكن يمكن أن تضعي الأوراق كلها عند هدى؟

ـ النسخ عندها، أما هذه فدفاتري وقيودي، وأنا التي أشرح متى كتبتها. الشركة تعرف أنني احتفظت بها، ولهدى خطاب الحيازة.

خرجنا إلى شارع البريد. كان هاتفي يحمل رسالة من فارس: «العاشرة صباحًا. لا تؤخر ما ستراه».

لم أعد ذاهبًا لأسأله لماذا غير المورد فقط. كنت ذاهبًا وفي الملف توقيع أبي على تغييره.

الفصل العاشر

توقيع أبي

يقع مكتب فارس الجديد في برج زجاجي على الطرف الآخر من مدينة الساحل، بعيدًا عن الملح والرطوبة وضجيج الشاحنات. في المصعد رأيت صورتي في ثلاث جهات: قميص مجعّد من ليلة قصيرة، عينان حمراوان، وملف أحمله كأن الورق يستطيع أن يمنع الأرض من الميل.

كان فارس ينتظرنا عند باب مكتبه. نظر إلى هدى، ثم قال:

ـ دعوت نادر.

قلت:

ـ وأنا طلبت منها أن تأتي.

فتح الباب.

ـ تفضلا.

لم يكن على طاولته إلا ملف أسود وكوب قهوة. جلسنا، فدفع الملف نحوي قبل أن أفتح حقيبتي.

ـ رأيت توقيع سالم، على ما أظن.

قلت:

ـ رأيت موافقته المشروطة على مورد بديل.

ـ الشرط موجود في كل طلب. السؤال: من قرر أن المشروع لا يحتمل تأخيرًا آخر؟ أنا وسالم. من وافق على المورد بعد أن قدم أوراقه؟ أنا وسالم. من ضغط لإنهاء الجزء قبل موسم المدينة؟ أنا وسالم.

فتحت هدى الملف. كانت فيه محاضر اجتماعات ومراسلات مطبوعة. أشارت إلى ورقة قبل أن ألمسها.

ـ نحتاج أن نعرف مصدر النسخ وأن نراجع الأصول في موضعها.

قال فارس:

ـ ستعرفين. أنا لا أطلب منكما اعتمادها الآن. أطلب فقط ألا يصبح سالم في الرواية الرجل الذي اكتشف شر الآخرين بعد أن اتخذ القرارات معهم.

قرأنا محضر اجتماع عقد قبل وصول الحمولة بأسبوعين. ورد فيه أن التأخير يهدد عقدًا رئيسيًّا، وأن الشريكين وافقا على البحث عن مورد بديل يلتزم بالمواصفات. في الصفحة الأخيرة توقيع أبي وفارس ومدير المشروع.

ثم رسالة من أبي:

لا مانع من البديل إذا وصلت شهادة المطابقة قبل الاستخدام ولم يتغير معيار المادة.

قال فارس:

ـ الشهادة وصلت.

أخرج نسخة التقرير التي تحمل النتيجة المقبولة.

قالت هدى:

ـ ولدينا نسخة أسبق تختلف عنها.

ـ وهذا خلاف بين المختبر وموظفيه. حين وصلتنا النسخة النهائية لم يكن من عملي أن أفترض أن موظفة غيرت رقمًا تحت ضغط خفي.

قلت:

ـ وصل تحذير قبل الحادث بأربعة أيام.

ـ ووصل بعده تصحيح يقول إن العينة عُرفت خطأ. هل كان علينا إغلاق مشروع كامل كلما صحح مختبر تقريرًا؟

قالها بهدوء. لم ينكر الورقة ولم يحتج إلى رفع صوته. وضع أمام كل حقيقة تفسيرًا ممكنًا، وبين الممكن والجريمة مساحة واسعة تكفي ليقف فيها.

أخرجت صورة تذكرة الحمولة.

ـ لماذا دخلت مادة من متانة الساحل، ثم ظهرت في كشف تسويتها فاتورة لشركة يرتبط بها رقم عدنان البحري؟

لم تتغير ملامحه، لكنه لم ينظر إلى الصورة طويلًا.

ـ متانة مورد، ومدار قدمت خدمات بحث ونقل. إذا كان في فواتيرها نقص فليُراجع. صلة عدنان بي لا تحول كل عقد له إلى سرقة.

ـ وهل تعلم أن الفاتورة لا تحمل تقرير خدمة؟

ـ أعلم الآن. الحسابات كانت مسؤولية نوال، وقد تركت الشركة بعد أخطاء اعترفت بها.

قالت هدى:

ـ واعترضت على تحميلها القيد وحدها.

ـ بعد أن جلس معها سالم. كان بارعًا في جعل كل موظف يرى نفسه مظلومًا حين يحتاج شهادته.

ضربت الجملة مكانًا لم أتوقعه. رأيت سمية وحمزة وليان وبشير ونوال، وكل واحد منهم يحمل قصة وورقة وعلاقة مختلفة بأبي. هل أصغى إليهم لأنه

رأى ما يحتاجونه، أم لأنه احتاج ما يعرفونه؟ كرهت السؤال، لكنني لم أستطع منعه.

قلت:

ـ أنت تقول إنه جمعهم ليحمي نفسه.

ـ أقول إن سالم لم يكن ملاكًا ولا محققًا محايدًا. كان شريكًا خاف بعد موت العامل أن يحمل نصيبه من المسؤولية. ربما صدق في رغبته في معرفة الحقيقة، لكنه عرف أيضًا أن الحقيقة التي تضع الخطأ كله عند غيره تنقذ اسمه.

قلت:

ـ ومسودة المخالصة التي أعددتموها لسمية في اليوم التالي؟ هل كانت تحمي اسم أبي أيضًا؟

شبك أصابعه فوق الطاولة.

ـ كانت محاولة لإيصال مال سريع إلى أسرة فقدت معيلها. الصياغة وضعها مستشار، وكان يمكن تعديلها. لكن سالم أخذ ورقة أولية وحولها إلى دليل على أننا نشتري الصمت.

ـ لأنها حملت محمود الخطأ قبل اكتمال الفحص.

ـ لأنها وصفت ما قاله تقرير الموقع الأول: دخل جزءًا موقوفًا. ثم ظهر خلاف في إفادة بشير. الشركات لا تستطيع أن تنتظر سنة قبل أن تدفع لأسرة.

ـ كان يمكن أن تدفعوا من غير إسقاط الحق.

ـ هذا ما يقوله من لم يدر مطالبة واحدة. المال بلا إغلاق للنزاع يفتح على الشركة التزامًا لا حد له.

رأيته للمرة الأولى كما ربما رآه أبي: ليس رجلًا يستمتع بحرمان سمية، بل رجلًا يرى كل إنسان بندًا يجب أن تكون له نهاية. الفرق بينهما كان في الشيء الذي يقبل كل منهما أن يضعه داخل الحساب.

قال فارس:

ـ حين ضربت العاصفة الميناء قبل ثماني سنوات، أراد سالم أن يدفع أجور العمال المتوقفين كاملة. قلت له إننا إن فعلنا فلن نستطيع فتح الموقع بعد شهر. دفعنا نصفًا، وحفظنا الوظائف. ظل غاضبًا مني، ثم اعترف أن الشركة نجت.

ـ وهل اعترف بذلك حقًّا؟

ـ قال إنني كنت محقًّا في الرقم، ومخطئًا في الطريقة. كان يحب دائمًا أن يترك لنفسه نصف الكلمة الأخيرة.

ظهرت على فمه ابتسامة قصيرة ثم اختفت. لم يكن يتحدث عن خصم غريب، بل عن رجل شاركه عمرًا. وربما كان حزنه عليه صادقًا بقدر ما كانت مصلحته في إغلاق ملفه.

دفع إليّ ورقة أخيرة. كانت موافقة على برنامج عمل مضغوط، تسمح باستمرار أعمال في أجزاء مجاورة أثناء مراجعة الجزء المختلف عليه. توقيع أبي في أسفلها، قبل الحادث بيومين.

قالت هدى:

ـ لا تذكر هذه الورقة السماح بالعمل في الدرج نفسه.

ـ لكنها تذكر استمرار العمل. بشير أرسل محمود إلى الممر. من فتح باب الاستعجال؟

لم أجب.

◆

بعد الاجتماع، بقيت في المصعد صامتًا. قالت هدى حين خرجنا إلى الموقف:

ـ التوقيع صحيح في ظاهره، لكننا نراجع الأصل والسياق. موافقته على مورد بديل لا تثبت علمه بمادة مخالفة. وموافقته على استمرار أعمال أخرى لا تحدد وحدها سبب الحادث.

قلت:

ـ لكنه وقع.

ـ نعم.

ـ وأبي لم يخبرنا بشيء من هذا.

ـ نعم.

كرهت أنها لا تنقذه لي. ثم أدركت أنني جئت بها كي لا يفعل أحد ذلك.

عدت إلى مكتبه القديم وحدي. فتحت درج الطاولة، وقلبت دفتر مواعيده عند تاريخ الاجتماع. وجدت أسماء الحاضرين، وسطراً واحداً: «البديل لا يعني تغيير الشرط». وفي اليوم التالي: «انتظار تأكيد المختبر».

لم أجد سطراً يقول إنه أوقف العمل. لم أجد سطراً يقول إنه عرف بالتبديل. تركت الصفحتين مفتوحتين، ووضعت إلى جوارهما نسخة الورقة التي قدمها فارس.

طلبت من هدى أن تمدد زمن مراجعة العرض حتى ننتهي من التحقق من الأصول. أرسلت الطلب باسمنا جميعًا، فوافق فارس على أربعة أيام إضافية، وكتب أن ترتيبات الموقع لن تنتظر بعدها.

حتى ذلك الصباح كنت أسأل عما فعله الآخرون بأبي. صار توقيعه الآن جزءًا من السؤال نفسه.

الفصل الحادي عشر

المفتاح المباع

اتصل حمزة قبل الثامنة صباحًا، وطلب أن نأتي إلى الورشة قبل أن يفتحها. لم يقل لماذا. حين وصلنا كان الباب المعدني منخفضًا إلى نصفه، فاضطررنا إلى الانحناء للدخول. لم يشعل إلا مصباح المكتب، وبدا المكان أصغر من المرة السابقة.

وضع على المنضدة مغلفًا فيه نقود، وهاتفه الذي ظل يرن أمامنا، والمفتاح المربوط بالخيط الأزرق.

قال:

ـ أنا فتحت لهم.

لم تجلس هدى. سألت:

ـ لمن؟

ـ رجل اسمه سعد. كان يعمل وسيط مشتريات مع أكثر من مشروع. اتصل بي بعد العزاء بساعات. قال إن في الورشة ورقة تخص الشركة، وإن الاحتفاظ بها بعد موت الأستاذ سالم قد يجعلني متهمًا بسرقتها.

قلت:

ـ فصدّقته؟

لم ينظر إليّ.

ـ لم أصدقه كله.

ـ أي جزء صدقت؟

دفع المغلف نحونا.

ـ الجزء الذي قال فيه إنه يسدد الإيجار المتأخر إذا دللته على الدرج.

جلست هدى هذه المرة، وأخرجت دفترها.

ـ ابدأ من أول اتصال. الوقت، الرقم، وما قلته أنت وما قاله هو بقدر ما تتذكر. لا تختصر لتجعل الأمر أخف.

روى أنه تلقى الاتصال بعد أن عاد من العزاء. كان يعرف سعد من أيام المشتريات. عرف الرجل بدينه، وذكر له مبلغًا قريبًا مما يطلبه صاحب الورشة. قال إن الورقة أصلها للشركة، وإن فارس يريد فقط استعادتها قبل أن تضيع بين الورثة.

سألته:

ـ هل ذكر فارس باسمه؟

ـ قال: «الأستاذ فارس يريد إغلاق الملفات». لا أعرف هل كان يتكلم باسمه حقًّا أم يستعمله.

ـ ثم جاء؟

ـ في الليل. فتحت له الباب، وأريته الدرج. قلت له يصور الورقة ويتركها. خرجت لأشتري عشاء. حين عدت كان الدرج مقفلًا، وهو ينتظر عند الباب. أعطاني المال وقال إن كل شيء بقي كما هو.

ـ وأنت لم تفتحه؟

ـ لم أفتحه.

ـ حتى جئنا؟

ـ نعم.

ـ ومثلت أنك فوجئت.

رفع رأسه أخيرًا.

ـ نعم.

لم أشعر بالغضب يصعد، كان موجودًا منذ دخلت، ينتظر فقط أن يجد عبارة يخرج منها.

قلت:

ـ وقف أبي معك بعدما وقعت على عهدة ناقصة وسكت، وأعطاك عملًا بعد أن خرج كل الناس من حولك، ثم لم تنتظر حتى يبرد قبره.

أغمض حمزة عينيه، ولم يدافع.

ـ أعرف.

ـ لا، لا تعرف. لو عرفت ما فتحت الدرج الذي تحقّق منه قبل موته.

قالت هدى:

ـ نادر، نحتاج الوقائع.

ـ الوقائع أمامك. أبي أخطأ حين ظن أن هذا الرجل يتغير.

فتح حمزة عينيه.

ـ ربما أخطأ.

كان قبوله أشد عليّ من دفاعه. أردت أن يقول إن الحاجة أجبرته، لأستطيع أن أهدم عذره. لكنه قال:

ـ لم يجبرني سعد. خفت من الدين، وطَمعت أن يخرج من حياتي في ليلة. قلت لنفسي إنهم سيأخذون ورقة تخصهم، وإن عند الأستاذة هدى نسخًا. صنعت كلامًا يكفيني حتى أفتح الباب. أنا الذي فتحته.

أشارت هدى إلى المغلف.

ـ كم أخذت، وكم بقي؟

ذكر المبلغ. كان قد دفع منه إيجار شهرين، وبقي أقل من النصف. طلبت منه إيصالاته، وصورت المغلف من غير أن تأخذه.

قلت:

ـ خذي المال.

قالت:

ـ ليس لنا أن نقرر الآن أين يذهب. يبقى محفوظًا، ويثبت هو ما تصرف فيه.

ثم التفتت إلى حمزة.

ـ ستكتب إفادتك، وتحتفظ بالرسائل وسجل الاتصالات. وقد يُطلب منك أن تكرر هذا أمام غيرنا. قولك الآن لا يمحو ما فعلت.

ـ أعرف.

ـ ولا أعدك بما يترتب عليك.

ـ أعرف.

كان يكرر الكلمة، وفي كل مرة تبدو أقل قدرة على حمل ما بعدها.

سألته هدى عن الضوابط التي وضعها أبي بعد خطئه القديم. قال إن أبي لم يسمح له بالعودة إلى المشتريات، ولم يترك في يده صندوقًا أو حسابًا. كانت طلبات الورشة تمر في سنتها الأولى عبر شخص آخر، وكان عليه أن يقدم إيصالات السداد ومواعيد علاجه.

قال حمزة:

ـ لم يعاملني كرجل بلا سجل. أبعدني عن الاستلام، وكانت طلبات الورشة تمر على غيري. ورقة الحمولة جاءت بعد ثلاث سنوات، لا في أول يوم.

قلت:

ـ ثم وجدت طريقًا آخر لتبيعها.

ـ نعم.

بقي محضر العهدة في الدفتر، وبقي المفتاح على المنضدة إلى جانب المال الذي أخذه حمزة بعد سنوات.

◆

أشار حمزة إلى الهاتف القديم في كيسه المختوم، ثم فتح على هاتفه الحالي سجل اتصال سعد ورسائله. قالت هدى إن ضياع الأصل يضعف الطريق،

لكنه لا يغلقه، يمكن طلب سجلات المورد والبوابة والحسابات، ويمكن مقارنة ما بقي في الموقع إذا حُفظ.

قلت:

ـ لو لم يضعها أبي عنده لما ضاعت.

قالت:

ـ الأصل خرج من عهده، والنسخة الرقمية بقيت. سنثبت الأمرين كما هما.

سألته هدى عن سعد: شكله، سيارته، الأرقام التي استخدمها. أجاب قدر ما يتذكر. حين انتهى، وقع على ما كتبته بعد أن قرأه بنفسه.

وقفت عند الباب. كان الصبي صاحب الدراجة ينتظر في الخارج، يرفع الباب المعدني بيديه الصغيرتين وينادي حمزة. نظر حمزة إليه، ثم قال له أن يعود بعد الظهر.

قلت:

ـ إذا أردت فرصة أخرى، فاطلبها باسمك وقل ما فعلت كاملًا.

اهتز وجهه، لكنه أومأ.

خرجت قبل هدى. لحقت بي عند السيارة، وقالت:

ـ كنت تسأل عن كرامة أبيك أكثر مما تسأل عما بقي من الدليل.

فتحت باب السيارة ولم أجب. كنت قد اتهمت فارس بأنه يجعل كل خلاف مسألة مصلحة، ثم جعلت أنا خيانة حمزة معركة لكرامة رجل مات.

حين ابتعدنا، بقي المفتاح على منضدة حمزة، وبقي اعترافه في دفتر هدى.

الفصل الثاني عشر

ليس بريئًا من كل خطأ

استغرق التحقق من أوراق فارس يومين من الاتصالات والمراجعات. لم يظهر فيها تزوير سهل يريحني. أصل محضر الاجتماع موجود في أرشيف الشركة، وتوقيع أبي مطابق لتواقيعه، وبرنامج العمل المضغوط اعتمده هو وفارس معًا.

اجتمعنا في مكتب هدى: أنا، ونوال، والمهندسة نجلاء. وضعت هدى نسخ الأوراق في ثلاثة صفوف على الطاولة: ما سبق الحادث، وما وقع في أيامه، وما كتبه أبي بعده.

قالت:

ـ لا نبحث اليوم عن رجل بلا خطأ. نبحث عما فعله كل شخص ومتى عرف.

أشارت نجلاء إلى طلب المورد البديل.

ـ سالم وافق على التغيير بشرط بقاء المواصفة والفحص قبل الاستخدام. هذا لا يثبت علمه بوصول مادة مخالفة. لكنه شريك في قرار الاستعجال، وكان عليه أن يطمئن إلى تحقق الشرط.

قلت:

ـ وكان التقرير المقبول أمامه.

ـ نعم. وكذلك كان هناك تحذير سابق ثم تعديل. السؤال: هل عرف بسبب التعديل قبل الحادث، وهل كان ينبغي أن يوقف العمل كله حتى يتأكد؟ هذه مسائل تحتاج إلى أكثر من توقيع.

فتحت نوال سجل المراسلات. وجدت رسالة من أبي إلى مدير المشروع صباح اليوم السابق للحادث:

> يستمر العمل في الأجزاء غير المرتبطة بالعينة، ويُمنع استعمال الدرج والجزء الشرقي حتى يرد تأكيد مكتوب.

قالت:

ـ هذه هي الرسالة التي استند إليها برنامج العمل.

قلت:

ـ إذن لم يسمح بدخولهم إلى موضع الانهيار.

قالت نجلاء:

ـ سمح باستمرار أعمال مجاورة. تحديد هل كان الفصل بينها ممكنًا وآمنًا ليس شيئًا أحسمه من هذه الورقة.

مرة أخرى رفضت الأوراق أن تعطيني أبًا كاملًا.

قلبت هدى إلى الصف الثالث. كانت فيه مذكرة كتبها أبي بعد خروجه من المستشفى الذي زار فيه بشير. لم تكن موجهة إلى جهة رسمية، بل مسودة لتسلسل الأحداث. قرأت منها:

> وافقتُ على ضغط البرنامج وعلى اعتماد المورد البديل بشرط المطابقة. ووصلني التقرير المعدل فقبلت استمرار الأعمال المنفصلة قبل أن أتحقق من سبب اختلاف النسختين. هذه مسؤوليتي ولا تُنقل إلى المحاسبة أو المختبر. أما سبب الانهيار ودخول العامل إلى الممر فيلزم فيه سماع العاملين وفحص المادة والسجلات.

توقفت عند عبارة «هذه مسؤوليتي». لم يكتب بعدها «ولكن». لم يقل إن فارس خدعه، ولا إن ليان بدلت، ولا إن بشير أخطأ. وضع فعله أولًا، ثم فصل ما لم يعرفه.

قالت هدى:

ـ هذه مسودة، وليست حكمًا على المسؤولية. فائدتها أنها ترينا ما كان يعلمه وكيف وصف قراره. الوثيقة الأخيرة في هذا المسار ليست معنا بعد.

سألتها:

ـ وما الذي يمنع أن يكون كتبها بعد الحادث ليبدو صادقًا؟

ـ لا شيء يمنع الاحتمال بمجرد قراءة الورقة. لذلك ننظر إلى وقت إنشائها، وإلى الرسائل التي أرسلها، وإلى ما إذا كان سلوكه وافقها.

أخرجت نوال نسخة رسالة بعثها أبي إلى إدارة الشركة في صباح اليوم التالي للحادث. طلب فيها تجميد أي خطاب يحمل محمود المسؤولية حتى يسمع المصابون وتراجع سجلات الدخول. وفي نهايتها كتب أنه سيقدم تسلسل قرارات الشريكين، بما فيه موافقته على ضغط الجدول.

قالت نوال:

ـ حاولت أن أحذف هذه الجملة حين نسخت الخطاب. ظننت أنها تضر به. أعادها بنفسه.

ـ لماذا؟

ـ قال إن مطالبة الآخرين بأسمائهم تبدأ من إبقاء اسمه في الموضع الذي وقع فيه.

قالت هدى:

ـ الرسالة لا تثبت ما في نفسه، ولا تلغي أثر قراره. لكنها تثبت أنه لم يختر بعد الحادث رواية تخرجه من التسلسل.

أعدت الورقة إلى مكانها. حتى الاعتراف يمكن أن يستعمله الإنسان لحماية صورته؛ لم أعد أريد أن أفتش في باطن أبي. كان أمامي فعل يمكن مراجعته: ذكر توقيعه حين كان يستطيع أن يبدأ بأخطاء موظفيه.

فهمت أنها تقصد ما وراء مفتاح قاسم، لكنها لم تزد.

قلت:

ـ لماذا لم يرني هذا؟

قالت نوال:

ـ ربما لأنه لم يكتبها لك.

لم تكن جملتها قاسية، بل صحيحة. كنت كلما وجدت ورقة لأبي تعاملت معها كأنها رسالة أخفاها عني. لكنه كان شريكًا يكتب عن حادث، ورجلًا يستعد لمراجعة، لا أبًا يترك لابنه تفسيرًا لكل شيء.

◆

طلبت أن نلتقي بشير مرة أخرى. وجدناه في مقهى قرب موقف العبّارات، بعيدًا عن الموقع. وضعت أمامه نسخة رسالة أبي، وسألته عن الفصل بين الممر والدرج.

قال:

ـ كان يمكن إغلاق الجزء كله. لكنه كان سيوقف نقل المواد من نصف الطابق. أبقينا الممر مفتوحًا لأن التقرير الثاني قال إن العينة الأولى خطأ.

ـ هل ناقشت أبي؟

ـ اتصل بي هو. قال: لا تقتربوا من الدرج. قلت إن الممر ظاهرًا سليم. قال: أنت في الموقع وتقدّر الحركة، لكن لا تدخل أحدًا إلى الجزء الشرقي.

ضغط كفه على العكاز.

ـ أرسلت محمود إلى طرف الممر. حين سقط الجزء، امتد إلى المكان الذي ظنناه منفصلًا.

ـ إذن أبي لم يأمر بدخوله.

ـ لم يأمر. لكنه وافق أن نبقى نعمل قرب جزء لم تتضح سلامته. وأنا قبلت. وفارس كان يريد ألا يتوقف يوم واحد. كلنا وقفنا على درجات مختلفة من القرار، ومحمود كان في الأسفل.

لا أعرف إن كانت هذه العبارة قد نضجت في رأسه أشهرًا، أم خرجت يومها. لكنها منعتني من أخذ الورقة والركض بها إلى صورة أبي.

حين عدنا إلى مكتب هدى سألتني:

ـ إذا تبين أن لوالدك نصيبًا في الخطأ، هل تريد أن نكمل؟

ـ أريد أن نعرف نصيبه بالضبط.

ـ حتى لو بقي في الملف؟

نظرت إلى توقيعه. كان يمكن أن أقول إنه مات، وإن ذكر خطئه لن يعيد محمود، وإن المقصود الآن هو فارس. تلك هي الحجج التي يلبس بها الإنسان خوفه ثوب الحكمة.

قلت:

ـ إذا محوناه، فعلنا ما فعله من أراد محو غيره.

اهتز هاتفي برسالة من هالة: وصل إلى البيت إشعار يطلب تحديثًا عاجلًا لوضع الضمان بعد استمرار توقف المشروع. اتصلت بها، فقالت إن أمي

فتحت الظرف ولم تخفِه، وإنهما تنتظران عودتي. للمرة الأولى لم يكن ثمن المراجعة احتمالًا يقوله فارس؛ صار ورقة على مائدة بيتنا.

أردت أن أقول لهالة إن الأمر إجراء معتاد، ثم توقفت. قلت إنني لا أعرف بعد مقدار الخطر، وإنني سأحضر كل ما لدي ونقرأه معًا.

كتبت في دفتري: «وافق أبي على التعجل، وقبل استمرار العمل قرب الجزء المختلف عليه». تركت الجملة كما هي. لم تكن تبرئه، لكنها كانت أول شيء عرفته عنه ولم أحاول أن أجعله أقل إيلامًا.

الفصل الثالث عشر

حق الفهم

في تلك الليلة حملت الملفات إلى البيت، لا إلى مكتب أبي. وضعتها على مائدة الطعام قبل أن تسألني أمي عن يومي، وأرسلت إلى هالة لتأتي من مناوبتها حين تستطيع.

قالت أمي وهي تنظر إلى الحقيبة الممتلئة:

ـ هل جاء وقت الكلام كله؟

ـ جاء متأخرًا.

أعددنا الشاي وانتظرنا هالة. كانت الريح تضرب نوافذ البيت من جهة البحر، ويصدر الزجاج صفيرًا خفيفًا كلما اشتدت. حين وصلت أختي، بقيت بملابس العمل وجلست أمامي.

بدأت من توقيع أبي، لا من الأدلة التي تخفف عنه. قلت إنه وافق على المورد البديل، وشارك في استعجال البرنامج، وقبل استمرار أعمال قريبة من الجزء المتوقف. ثم شرحت اختلاف التقرير، وسجل الحمولة، وتحويلات المورد، وما فعله حمزة.

لم تقاطعني أمي حتى انتهيت.

قالت هالة:

ـ وهل كان أبي يعرف أن حمزة باع مكان الورقة؟

ـ مات قبل أن يفعل.

ـ وفارس؟

ـ لا نملك ما يثبت أنه أرسل الرجل. حمزة سمع اسمه من الوسيط فقط.

قالت أمي:

ـ أحسنت أنك لم تجعل السماع إثباتًا.

كان أبي يقول مثلها، فضايقني التشابه ثم مر.

أخرجت صورة المذكرة، وقرأت لهما العبارة التي أثبت فيها مسؤوليته. غطت هالة فمها بيدها. أما أمي فأخذت الورقة، وقربتها من الضوء.

قالت:

ـ هذه هي الليلة التي عاد فيها بعد منتصف الليل.

ـ هل أخبرك؟

ـ أخبرني أن قرارًا وقعه ربما أبقى العمال قريبين من الخطر. قال إنه لم يأمر أحدًا بدخول الدرج، لكنه لا يستطيع أن يتصرف كأن الاستعجال كان قرار فارس وحده.

شعرت بحرارة تصعد إلى وجهي.

ـ أخبرك بهذا أيضًا.

ـ أخبرني لأنه أراد أن يستخدم من مدخراته أتعاب خبير مستقل، وكان المال بيننا. لم يكن له أن يفعل من غير علمي.

ـ ولماذا لم تخبراني؟

تنفست ببطء.

ـ قلت له نخبركما. قال إن هالة في بداية عملها، وإنك بعيد وتظن أصلًا أنه لا يحسن إدارة الشركة. أراد أن ينتظر حتى يعرف أين يقف خطؤه. وافقته أيامًا، ثم طال الانتظار. هذا خطؤه وخطئي.

قالت هالة:

ـ كم كنت تعرفين حين سألناك بعد العزاء؟

لم تبتسم أمي لاعتراضها على التعبير، مع أن هالة كانت تسمي الأيام كأنها أبواب كتاب.

ـ كنت أعرف أنه استعجل، وأن هناك تقريرين، وأنه طلب فحصًا مستقلًا. لم أكن أعرف اسم المورد ولا أوراق نوال ولا ما عند حمزة.

قلت:

ـ قلتِ لي إن الضمان قديم، ولم تقولي إن مدخراته ذهبت إلى الخبير.

ـ لأنك يومها لم تسأل لتفهم. جئت بحكم، وأردت مني أن أختار بينك وبينه. وكان ينبغي مع ذلك أن أقول.

ذهبت إلى المطبخ وعادت بوعاء طعام بقي منذ العصر. سخنته، ووضعته أمامنا، ثم قالت إن أبي في أسبوعه الأخير لم يأكل معهم إلا مرة واحدة. كان يعود من المكتب ويحمل ملفاته إلى الغرفة، فإذا سألته قال إن المسألة ستنتهي قريبًا.

ـ تشاجرت معه آخر ليلة، قالت. قلت له: تجعل الوصول إليك سهلًا لكل صاحب حاجة، ثم تجعلنا نقف أمام بابك نخمن. لم يرفع صوته. قال إنه يريد يومين فقط حتى يجمع الورق، ثم يجلس معنا جميعًا. مات قبل اليومين.

قالت هالة:

ـ لم تكوني مضطرة إلى حفظ وعده بعد موته.

ـ أعرف. لكن الإنسان يتأخر أحيانًا لأنه ينتظر اللحظة التي وعده بها شخص لم يعد يستطيع الوفاء.

لم تحاول أمي أن تحول موته إلى عذر. وضعت الطعام في صحوننا، وجلست. أكلنا ونحن نقلب الأرقام، وكان ذلك أقرب إلى حياتنا معه من كل مجالس الثناء: أمر عادي يتوسط خوفًا كبيرًا، ولا يزيله.

سكتنا. لم يكن في البيت شخص يستطيع أن يقف خارج الخطأ ويوزعه علينا. أبي صمت، وأمي قبلت جزءًا من صمته، وأنا أخفيت العرض، وهالة تركت غضبها يكبر من غير أن تسأل إلا بعد موته.

فتحت هالة حاسوبها.

ـ نبدأ من الآن. كل ورقة تصل تضعها هنا. كل عرض من فارس نراه في يومه. وكل قرار يمس البيت لا تخبرنا به بعد أن تتخذه.

أنشأت مجلدًا مشتركًا، وقسمته إلى: الديون، المشروع، مطالبة سمية، أوراق أبي. صورت أمي دفتر المصروف، وأرسلت أنا عرض فارس. وفي الصباح أرسلت لنا هدى بيان الورثة وخطوات حصر التركة؛ لا بيع قبل اكتمالها وتوقيع أصحاب الأنصبة. وأضفنا إلى التفويض المحدود حقي في التفاوض باسمهم، على أن يبقى قبول البيع وتوقيعه لنا جميعًا. لم يحل التنظيم شيئًا، لكنه نقل الخوف من رؤوسنا إلى مكان نستطيع جميعًا رؤيته.

فتحنا حسابات البيت وحددنا ما يمكن تأجيله وما لا يمكن. قالت هالة إنها تزيد مناوباتها، فرفضت أمي أن نجعل راتبها خطة إنقاذ قبل أن نعرف المطلوب. اقترحت بيع سيارة أبي الثانية، واتفقنا أن نسأل عن قيمتها في الصباح. لم تكن القرارات كبيرة، لكنها منعتني من العودة إلى عادتي: أن أخرج من الغرفة ومعي العبء كله، ثم ألوم الآخرين لأنهم لا يفهمون ثقله.

قالت أمي:

ـ وما أقصى ما نخسره إذا أكملت؟

شرحت ما أعرفه، وما لا أعرفه. قد يتأخر البيع، وقد يطالب الممول، وقد نضطر إلى بيع أصل آخر أو الخروج من البيت إذا ساء الأمر. لم أقل إن العدالة ستنقذنا، ولم أقل إن أبي يستحق أن نخسر من أجله.

قالت هالة:

ـ والقضية إذا بعنا؟

ـ لا تختفي كل الإجراءات ببيعنا، لكن فارس يريد الحصة والملفات وتسوية المطالبات المتعلقة بالشركة. من دون تعاوننا يصعب الطريق على سمية.

رن هاتفي. كان فارس. نظرت إليهما، ثم فتحت مكبر الصوت.

قال:

ـ انتهت المهلة الإضافية التي طلبتموها يا نادر.

ـ أنا مع أمي وهالة. نسمعك جميعًا.

صمت لحظة.

ـ حسنًا. أرسلت عرضًا معدلًا. يحمي البيت، ويسدد الالتزامات، ويتضمن مبلغًا مناسبًا لأسرة محمود.

سألت أمي:

ـ وهل يطلب من سمية أن تقول إن زوجها أخطأ؟

ـ لا أطلب منها قول شيء. تسوية تنهي النزاع وتحفظ الجميع.

ـ أرسل النص كاملًا، لا خلاصته.

قال إنه سيرسله صباحًا. قبل أن يغلق قال لي إن أعمال إزالة الجزء الخطر قد تتقدم، وإن التأخير لم يعد في صالح أحد.

بعد المكالمة وصلتني رسالة من بشير، من سطر واحد:

> لن أستطيع لقاءكم مرة أخرى، ولن أوقع شيئًا جديدًا. أرجو أن تعذروني.

وضعت الهاتف أمام أمي وهالة. لم أخفِ الرسالة حتى أفهمها، ولم أقل إنني سأحلها. قرأناها معًا، وبقيت على الطاولة بيننا.

ولم يمد أحد يده ليخفيها.

الفصل الرابع عشر

شاهد خائف

لم يجب بشير عن اتصالات هدى في الصباح. أجابني أنا بعد الظهر، ربما لأنه ظن أنني لن أعرف كيف أحاصره بالأسئلة. طلب أن نلتقي عند موقف العبّارات، في المقهى الذي جلسنا فيه من قبل، وأن آتي وحدي.

أخبرت هدى. قالت إنها لن تمنعني، لكنني لا أطلب منه ورقة ولا أعده بشيء، وأخبرها بعد اللقاء بما قاله. وافقت.

كان جالسًا إلى طاولة تواجه الماء. عكازه مستند إلى الكرسي، وكوب الشاي أمامه لم يمسّه. جلست، فدفع إليّ المفتاح الأسود.

قلت:

ـ استعملناه وأعدناه إليك.

ـ لا أريده.

ـ المفتاح ليس القضية.

ـ عندكم السجلات والصور. أنا انتهيت.

وضعت المفتاح بيننا.

ـ ماذا حدث؟

نظر إلى العبّارة وهي تبتعد عن الرصيف.

ـ اتصلت الشركة التي يعمل معها ابني. قالوا إن عقده المؤقت لن يجدد حتى تنتهي الضجة. صاحب الشقة التي نسكنها تذكر فجأة أن السكن تابع للمقاول القديم. وفارس أرسل رجلًا يقول إن لي تعويض إصابة لم أستلمه كاملًا.

ـ هددك؟

ـ لم يقل أحد: غيّر كلامك. هذا هو الجميل في الأمر. كل باب يغلق وحده، ثم يجيء رجل يفتح لك بابًا إذا جلست ساكتًا.

ـ وهل ستأخذ التعويض؟

ـ هو حقي عن إصابتي.

ـ مقابل ماذا؟

ضرب كفه على الطاولة، فاهتز الكوب.

ـ قلت لك لم يطلبوا مني كذبًا. وأنا لن أكذب. إفادتي الأولى موجودة. لكنني لن أوقع جديدًا، ولن أقف أمام الناس لأقول إنني أرسلت محمود إلى المكان الذي مات فيه.

ـ قلتها لي.

ـ قلتها لأبيك أيضًا، وانظر أين وصل.

ظهر الغضب في صوته للمرة الأولى.

ـ أنت عندك بيت تخاف عليه. وأنا عندي بيت ليس لي أصلًا. عندك محامية ووقت لتفتح المفاتيح. أنا إذا توقف راتبي آخر الشهر لا أحتاج ملفًا لأعرف النتيجة.

أردت أن أقول إن سمية فقدت أكثر، وإن صمته يساعد من كتب عن محمود رواية غير صحيحة. لكنني تذكرت كيف جلست قبل أيام في بيتنا أحسب ما يمكن أن نخسره. لم يكن خوفي أنبل من خوفه لأنه مكتوب في عقد أكبر.

قلت:

ـ هل تغير شيء مما قلته؟

ـ لا.

ـ وهل تسمح لي أن أنقل لهدى أنك لم تتراجع عن الوقائع، بل لا تريد مشاركة جديدة؟

ـ قل ما شئت، لكن لا تجعلني بطلًا ولا خائنًا. أنا خائف، وهذا يكفي.

ترك المفتاح ونهض. حمل عكازه، ثم عاد وأخذ المفتاح من الطاولة.

قال:

ـ هذا يفتح غرفة في موقع لم يعد لي. أعطه لهدى.

مضى قبل وصول العبّارة التالية.

◆

في مكتب هدى علمت أن ليان تلقت توجيهًا من إدارة المختبر بألا تتحدث خارج أي طلب رسمي. لم تسحب إفادتها، لكنها لن تقابلنا مرة أخرى الآن. أما نوال، فقد وصلتها رسالة تطالبها بإعادة كل نسخة من سجلات الشركة.

قالت هدى:

ـ هذا لا يعني أن كل شيء انهار. الأصول يمكن طلبها، وما وثقناه يبقى طريقًا. لكن الشهود خائفون، والموقع قد يتغير إذا بدأت المعالجة.

ـ هل تستطيعين إيقافها؟

ـ أستطيع أن أطلب حفظ ما يلزم للفحص، ومعنا ما يدعم الطلب. لا أعدك بالنتيجة ولا بالوقت.

وضعت المفتاح الأسود في ظرف، وسجلت أن بشير أعاده.

وصل عرض فارس المعدل في اللحظة نفسها. فتحته هدى، وقرأته بصمت. كان أطول من العرض الأول. شراء الحصة، سداد الالتزامات المرتبطة بها، فك ارتباط البيت، مبالغ للموظفين المتأخرين، وتسوية مقترحة لأسرة محمود.

قالت:

ـ يحتاج مراجعة كاملة. بعض عباراته واسعة، ولا أريدك أن تفهم منها الآن أكثر مما تقول.

ـ لكنه ينقذ البيت.

ـ بحسب ما هو مكتوب مبدئيًّا، يعالج الخطر المباشر. وفي المقابل تنقل حصتك وما يتصل بها من مطالبة وأرشيف، وتلتزم بالتعاون في إغلاق نزاعات الشركة. حدود ذلك تحتاج إلى بيان.

اتصل فارس ودعاني إلى مكتبه. ذهبت وحدي هذه المرة، بعد أن أخبرت هدى وأرسلت لأمي وهالة مكاني.

لم يضع أمامي أوراقًا جديدة. قال:

ـ بشير لن يكمل، والمختبر لن يسمح لموظفته أن تصنع بطولة على حسابه. حمزة باع ورقة ثم اعترف حين خاف. هؤلاء هم الذين وضع سالم شركته وبيتكم في أيديهم.

قلت:

ـ ووضع نسخًا في مواضع أخرى.

ـ لأنه لم يثق بهم كامل الثقة، ومع ذلك بنى قضيته عليهم. هذا ما أريدك أن تراه. الناس ليسوا كما كان يتمنى.

ـ ولا كما تعاملهم أنت.

مال إلى الخلف.

ـ أنا أدفع رواتبهم، وأعالج أخطاءهم، وأحفظ العمل قائمًا. الفرق أنني لا أسمي الخسارة رحمة.

أشار إلى العرض في يدي.

ـ لا أطلب منك أن تكذب. بع حصتك، خذ بيت أمك من الخطر، واترك الجهات تراجع ما تشاء. سمية تحصل على مبلغ لن تعطيها إياه سنوات الانتظار. الموظفون يعودون. ما الخطأ في ذلك؟

ـ هل اتصلت ببشير؟

ـ أرسلت الإدارة إليه ما بقي من تسوية إصابته.

ـ وفي اليوم نفسه عرف أن عقد ابنه لن يجدد.

رفع حاجبيه.

ـ شركة ابنه ليست لي.

ـ لكنها تعمل معكم.

ـ تعمل مع عشرات الجهات. يا نادر، النتائج ليست تهديدات لمجرد أنها مؤلمة. حين يدخل موظف في نزاع مع شركته تتردد جهات أخرى في الاقتراب منه. لا أحتاج أن أتصل بأحد حتى يقع ذلك.

ـ وتستفيد أنت من وقوعه.

ـ كما تستفيد قضيتك من خوف نوال وذنب ليان وحاجة سمية. لا تجعل مصلحتك طاهرة لمجرد أنك سميتها حقًّا.

بقيت عبارته بيننا. كان في كلامه ما لا أستطيع نفيه، وفي عرضه ما لا أستطيع قبوله قبل أن أقرأه كاملًا.

كان لكل بند وجه يمكن الدفاع عنه. ولو حذف اسم محمود من الأوراق، لبدا العرض قرارًا مسؤولًا لا يرفضه إلا رجل يريد أن يثبت شجاعته بمال أسرته.

قلت:

ـ أحتاج إلى مراجعة البنود مع هدى.

ـ راجعها. غدًا عند الظهر أحتاج جوابك. بعده تبدأ ترتيبات الموقع، ولا أضمن أن يبقى البيت خارج المطالبة.

نهضت. لم يمد يده هذه المرة.

خرجت والعرض تحت ذراعي، والمفتاح الأسود في حقيبة هدى، والشهود يغلقون أبوابهم واحدًا بعد آخر. للمرة الأولى بدت موافقة أسرتي على العرض أقرب من الحقيقة، وأقدر منها على إنقاذ شيء أستطيع لمسه.

الفصل الخامس عشر

بيت بمقابل

قرأنا العرض في مكتب هدى صباح اليوم التالي. حضرت أمي وهالة، وجلست هدى أمامنا تعيد كل بند بلغة أقصر من لغته المكتوبة.

قالت:

ـ إذا وافق الورثة ووقّع أصحاب الأنصبة بعد اكتمال إجراءات التركة، تنتقل حصة سالم إلى فارس أو إلى الجهة التي يحددها، وتُعالج الديون المتصلة بالضمان، ويُطلب فك ارتباط البيت بعد إتمام النقل. وفي المقابل يسلّم ممثل الورثة ما في حيازتهم من نسخ تخص الشركة، ويتوقفون عن الاعتراض بصفتهم ورثة، ويتعاونون في إغلاق المطالبات المدنية المذكورة هنا.

قالت هالة:

ـ ومطالبة سمية؟

ـ هناك مبلغ منفصل يعرض عليها، لكن قبولها يعني إنهاء مطالبتها تجاه الشركة في الحدود المكتوبة. لا توجد في النسخة الجديدة جملة تقول إن محمود دخل من غير تكليف، لكن التسوية تغلق السؤال المالي.

قلت:

ـ والتحقيق في تغيير المادة؟

ـ بيعكم لا يمحو ما قد تنظر فيه الجهات من تلقاء عملها. لكنه يسحب اعتراض الورثة، وينقل الأرشيف، ويترك متابعة الوقائع أصعب إذا لم يتقدم أصحابها أو تصل الأصول بطريق آخر.

قالت أمي:

ـ أي إنه لا يطلب منه أن يقول كذبًا، بل أن يخرج من الطريق.

أومأت هدى.

ـ هذا أقرب وصف مختصر.

وضعت القلم على الطاولة. لم يكن العرض نفَّاً رديئًا يمكن كشفه من أول سطر. كان يعطينا شيئًا حقيقيًّا: بيتًا يبقى، ودينًا ينتهي، ورواتب تعود، ومالًا لسمية الآن بدل انتظار لا تعرف مداه. وفي المقابل لا يطلب مني أن أمزق تقريرًا أو أغير رقمًا. يكفي أن أتنازل عن موضعي، ثم يدع الزمن يقوم بالباقي.

قالت هالة:

ـ هل نعرف إن كان المبلغ يكفي سمية؟

ـ لا يحق لنا أن نقرر عنها، قالت هدى. يمكن عرض الجزء المتعلق بها عليها، من غير ضغط ولا ربط قراركم بقرارها.

طلبت أن نذهب إليها.

قبل أن نخرج، أرسلت هدى إلى فارس صيغة أقصر: بيع الحصة وفك الضمان من غير سحب طلب الحفظ، ومن غير تسليم أوراق أصحابها، ومن غير ربط الصفقة بمخالصة سمية. جاء رده خلال دقائق: «لا شراء لحصة تحمل نزاعًا مفتوحًا بالقيمة نفسها». لم يكن رفضه بلا منطق تجاري، لكنه أكد أن المال المعروض لا يشتري الحصة وحدها.

◆

كانت سمية تعمل حين دخلنا. جلست ابنتها عند طرف الطاولة تحل واجبًا مدرسيًّا، فطلبت منها أمها أن تأخذ الدفتر إلى الغرفة الخلفية. قرأت هدى عليها البنود المتعلقة بها، ثم تركت لها الورقة.

سألت سمية عن المبلغ مرتين.

ـ يدفع مرة واحدة؟

قالت هدى:

ـ بحسب العرض، نعم.

حسبت سمية شيئًا على آلة صغيرة: دين الصيدلية، ما بقي من آلة الخياطة، رسوم المدرسة، وإيجار البيت. رأيت الإغراء يأخذ شكل احتياجات لا شكل طمع.

قالت لي:

ـ وأنتم إذا بعتم، يبقى بيت أمك؟

ـ هذا ما يعد به العرض.

ـ وإذا لم تبع؟

ـ قد نخسره، أو نضطر إلى بيعه بأنفسنا. لا أعرف.

طوت الورقة، ثم فتحتها.

ـ لا تجعلني سبب قرارك. إذا أخذت المال سيقول بعض الناس إني بعت محمودًا. وإذا رفضته لن يدفع أحد مدرسة ابنتي بدلًا عني. أحتاج أن أفكر في حقي أنا، وأنت فكر في الذي تملكه أنت.

قلت:

ـ لكن خروجنا يضعف مطالبتك.

ـ نعم. قل هذه الحقيقة، ولا تجعلها أمرًا لي بأن أكون أشجع منكم.

لم تقل ما كنت أريده: لا توقع. ولم تمنحني إذنًا: أنقذ بيتك. أعادت القرار إلى صاحبه، واحتفظت بثقل قرارها.

قبل أن نغادر سألت هدى إن كان يمكن أن تأخذ نسخة إلى شخص نثق به. قالت نعم، وأعطتها وقتًا لا يرتبط بموعد ردنا إلا في حدود العرض.

في الزقاق قالت أمي:

ـ الآن لا تقل إنك تفعل شيئًا من أجل سمية من غير أن تسمي ما تفعله من أجلنا أيضًا.

ـ تريدين أن أوقع؟

ـ أريد أن أعرف لماذا ستوقع أو ترفض. البيت ليس حجتي عليك، وأبوك ليس حجتك علينا.

◆

عند الحادية عشرة جاء رجل إلى بيتنا ليفحصه ضمن مراجعة الضمان. لم يدخل قبل أن تتأكد هدى من صفته، ثم سار من غرفة إلى غرفة يصور الجدران والنوافذ ومساحة الفناء. وقفت أمي تراقبه وهو يقيس المجلس الذي استقبلنا فيه المعزين.

حين وصل إلى الباب، رفع المقبض المتراخي وقال:

ـ يحتاج إصلاحًا.

كادت هالة تضحك، ثم بكت بدلًا من ذلك. دخلت إلى غرفتها وأغلقت الباب.

وجدت أمي خلف خزانة الممر خطوطًا بالقلم سجلت أطوالنا أنا وهالة في طفولتنا. كان أبي يكتب التاريخ إلى جانب كل خط، ثم يضيف مقدار الزيادة. طلب الرجل تصوير الجدار، فابتعدت أمي، لكنها وضعت كفها فوق آخر خط لهالة قبل أن تتركه. بعد خروجه التقطت هالة صورة للعلامات، وقالت إنها لا تريد قطعة من الجدار ولا تذكارًا كبيرًا؛ تريد فقط ألا يأتي يوم تظن فيه أن البيت لم يكن لنا.

أصلح أبي ذلك المقبض عشرات المرات، ويعود إلى الارتخاء. جلست على الكرسي القريب منه، وفكرت في أن البيت الذي أخشى فقده لم يكن جدرانًا فقط؛ كان المكان الذي ترك فيه أبي أشياء صغيرة غير مكتملة، ثم مات.

وصلت إلى مكتب فارس قبل الظهر بعشر دقائق. كان العقد مطبوعًا، والقلم إلى جانبه.

قال:

ـ راجعتم؟

ـ راجعنا.

ـ وسمية؟

ـ ستقرر عن نفسها.

ـ جيد. إذن لا سبب للتأخير.

فتحت العقد عند بند تسليم الأرشيف. سألت إن كان يقبل أن تبقى نسخة كاملة عند هدى، وأن يستثنى من الإغلاق كل ما يتعلق بفحص سبب الحادث. قال إن ذلك يعيدنا إلى البداية.

ـ الشركة لا تدفع هذا المبلغ لتشتري حصة مشتعلة بالنزاعات.

ـ ونحن لا نبيع حصة فقط. تريد أن نخرج ومعنا الأوراق.

ـ أريد أن تخرج من خلاف لا تعرف نهايته، قبل أن يأخذ بيتك معه.

دفع القلم نحوي.

وضعت يدي عليه، ثم أعدت قراءة بند تسليم الأرشيف. بقي كما هو.

أبعدت يدي عن القلم.

ـ لن نوقع بهذه الصيغة.

قال فارس:

ـ إذا خرجت الآن أتعامل مع العرض على أنه مرفوض.

ـ افعل.

في المصعد رن هاتفي. كان رقمًا غير محفوظ. أجبت.

جاء صوت قاسم:

ـ بقي مفتاح واحد.

قلت:

ـ أعرف.

ـ لا، لا تعرف ما بقي عليك قبل أن تأخذه. تعال إلى مخزن الشباك القديم عند العصر.

أغلق الخط.

خرجت من البرج، ولم أكن قد أنقذت البيت ولا القضية. كنت قد رفضت الورقة قبل أن أعرف ما يفتحه المفتاح، ولم يبق إلا أن أحول الرفض إلى خطوة تحفظ ما يمكن فحصه.

الفصل السادس عشر

هذا ليس من التركة

كان مخزن الشباك القديم أقدم من شركة أبي. يقع عند رصيف صغير هجرته قوارب الصيد الكبيرة، وبقيت فيه قوارب خشبية ومقاعد يصلح عليها الرجال شباكهم. وجدت قاسم أمام باب جانبي، يحمل المفتاح في جيبه ولا يظهر منه شيء.

دخلنا إلى غرفة واسعة تتدلى من سقفها حبال وشباك مطوية. في آخرها سلم يصعد إلى غرفة صغيرة كان أبي يستعملها مكتبًا حين بدأ عمله مع فارس. لم نصعد.

قال قاسم:

ـ قبل أن أعطيك المفتاح، اسمع لماذا بقي معي.

جلست على صندوق خشبي. ظل واقفًا.

ـ محمود كان صديقي منذ جئنا إلى مدينة الساحل. يوم مات، قالوا إنه دخل المكان وحده. كنت أعرف أنه لا يتحرك في الموقع قبل أن يسأل بشير. ذهبت إلى المستشفى، ورأيت أباك عند الباب. دفعته وقلت أمام الناس إنه قتل محمود ثم جاء يتصدق علينا.

توقف. لم ينظر إليّ وهو يكمل.

ـ هددته أنني سأقف أمام بيته وشركته كل يوم. أمسك يدي حين رفعتها مرة ثانية، وقال: إن مددت يدك منعتك، وإن ذهبت إلى بيتي أخطأت في حق أهلي. أما كلامك عن محمود فاجلس وقل كل ما تعرف.

تخيلت أبي يمسك يده عند باب المستشفى، وقاسم يصرخ في وجهه أمام الداخلين.

قال قاسم:

ـ جلست. قلت أسماء الرجال، وما سمعته عن التقرير، وإن محمود اتصل بي قبل الحادث وقال إنهم يعملون قرب جزء متوقف. لم يعدني أبوك بشيء. كتب، ثم سألني إن كنت أقبل أن تبقى نسخة من الملف عند طرف لا ينتمي إلى الشركة ولا إلى بيته.

قال قاسم إن غضبه لم يهدأ في ذلك اليوم. طلب من أبي أن يدفع لأسرة محمود كل ما تحتاجه فورًا، وأن يعلن مسؤولية الشركة قبل الفحص. أجابه أبي بأن ما يملكه من ماله يدفعه، وما يتعلق بحق الشركاء والموظفين لا ينفرد به، وما يتعلق بحق سمية لا يصالح عنه بدلًا منها.

ـ قلت له إنه يختبئ خلف الورق، قال قاسم. قال لي: ربما. ولذلك خذ نسخة من الورق ولا تتركني أنا أصفه لك.

قلت:

ـ وأنت؟

ـ قلت له لا أثق بك. قال: لهذا أريده عندك.

أخرج المفتاح ووضعه على كفه.

ـ الصندوق فوق. فيه أوراق تخص اسم أبيك، وأوراق تخص موت محمود. قال لي: إذا مت أو عجزت، لا تسلم المفتاح لورثتي لمجرد أنهم ورثتي. إذا أرادوا بيع الحصة وإغلاق النزاع، يسلم الصندوق إلى هدى بالطريق الذي يحفظه، لا إليهم. وإذا اختاروا بقاء الملف مفتوحًا، يفتح بحضوركم جميعًا.

كانت هدى تعرف موضع الخزانة من فهرس أبي، لكنها لا تملك مفتاحها ولا حق الدخول وحدها. وكان اتفاق الحفظ يجعل فتحها بحضور قاسم ومن يمثل الورثة، مع تسجيل المحتويات.

قلت:

ـ تختبرني إذن.

ـ لا. أنا أحفظ ما وافقت عليه. الاختبار صنعه أبوك حين ترك لك حصة وبيتًا ودينًا في الجهة الأخرى.

ـ وماذا في الصندوق يساعدني على القرار؟

أغلق أصابعه على المفتاح.

ـ لو قلت لك، صار قرارك ثمناً لما فيه. قرر بما رأيت.

قلت:

ـ وإذا بعنا الحصة؟

ـ أسلّمه إلى هدى ليصل إلى الجهة التي تنظر في البلاغ. لا أحرقه، ولا أعيده إلى الشركة، ولا يمر بك.

خرجت إلى الرصيف واتصلت بهدى. شرحت لها ما قاله، ثم سألتها عن الخطوة التي تحفظ الموقع.

قالت:

ـ نستطيع تقديم طلب عاجل مدعوم بما جمعناه، وإبلاغ الشركة باعتراضك بصفتك مفوضًا من الورثة في متابعة الملف. لا أضمن القبول، وقد يُستخدم توقف العمل لتسريع المطالبة المالية.

ـ وإذا فتحنا الصندوق أولًا؟

ـ قد نجد ما يقوي الطلب، وقد لا نجد. من جهة الحفظ، الوقت أهم الآن.

طلبت منها أن تنتظر دقائق. اتصلت بأمي وهالة في مكالمة واحدة. أخبرتهما أن القرار لم يعد مجرد عدم توقيع، علينا أن نطلب وقف أي تغيير في الموقع حتى يكتمل الفحص، وقد يدفع ذلك فارس إلى ترك البيت للمطالبة.

قالت هالة:

ـ هل تفعلها لتثبت أن أبي لم يخطئ؟

نظرت إلى البحر. قارب صغير كان يدخل الرصيف، ورجل في مقدمته يرفع الحبل استعدادًا للرسو.

ـ لا. نثبت خطأه كما هو. ونثبت ما فعله الآخرون كما هو. إذا كان الصندوق يبرئه من شيء، لا يمحو ما وقع عليه. وإذا أدانه في شيء، لا نغلقه.

قالت أمي:

ـ قدم الطلب. البيت لنا جميعًا، وكذلك ثمن القرار. لكن لا تعدنا أن النتيجة ستنصفنا سريعًا.

قلت:

ـ لا أعد.

اتصلت بهدى، وطلبت منها أن تبدأ. أرسلت إليها موافقتي المكتوبة على الاعتراض وحفظ الموقع، ثم شاركت نسخة مع أمي وهالة كما اتفقنا.

عدت إلى داخل المخزن. كان قاسم لا يزال واقفًا في مكانه.

قلت:

ـ بدأنا طلب الحفظ. لم أوقع العرض.

ـ لأنك تريد الصندوق؟

ـ كنت أريده وأنا في الطريق. الآن لو لم تفتحه، ستبقى الخطوة كما هي.

مد يده بالمفتاح.

ـ لهذا أعطيك إياه.

لم آخذه فورًا.

قلت:

ـ لماذا قلت في العزاء إنه ليس من التركة؟

ـ لأن بعض ما في الصندوق لا يخص أباك. وما يخص محمود ليس للورثة أن يبيعوه مع الحصة.

فتحت كفي. وضع المفتاح فيها، وبقيت يده فوقها لحظة حتى تأكد أنني قبضت عليه.

صعدنا السلم إلى الغرفة القديمة. كان في آخرها صندوق حديدي منخفض، عليه غبار خفيف وآثار أصابع عند حافته. لم ندخل المفتاح.

اتصلت بهدى. طلبت ألا نلمس الصندوق، وسجلت عبر الهاتف قول قاسم إنه احتفظ بالمفتاح منذ تسلمه ولم يفتحه. نزلنا إلى الغرفة الواسعة وانتظرنا وصولها.

الفصل السابع عشر

الصندوق الأخير

وصلت هدى قبل المغرب، ومعها موظف من مكتبها لتسجيل ما يوجد في الصندوق. لم يعجبني وجود شاهد رابع على رسالة قد تكون من أبي، لكن هدى قالت إننا نستطيع فصل الأوراق الشخصية بعد إثبات موضعها، وإن بقية المحتويات لا ينبغي أن تخرج من غرفة مغلقة بلا سجل.

وافق قاسم. أدخل المفتاح، ثم ترك لي أن أديره.

لم يصدر عن الصندوق إلا طقة واحدة. لا آلية خفية، ولا درج داخل درج. رفعنا الغطاء، فظهرت ملفات مرتبة، وعلى كل واحد منها بطاقة بخط أبي: «المختبر»، «المورد»، «الموقع»، «الحسابات»، «البلاغ»، «الضمان»، ثم مغلف صغير كتب عليه اسمي.

بدأت هدى بالملفات. قارنتها بفهرسها، وطلبت من موظفها أن يسجل كل نقص أو زيادة. لم نجد أصل تذكرة حمزة. وجدنا صورتين واضحتين لها، ورسالة كان أبي قد أرسلها إلى المورد يطلب تأكيد رقم الدفعة والشاحنة. لم يصل الرد في الملف.

طابقت هدى تواريخ الفهرسين: نسختها التي أعدت قبل موت أبي، والنسخة التي بقيت في الصندوق. اتفقت مواضع الأوراق وأسماء حائزيها، عدا الأصل الذي خرج من درج حمزة. كان ذلك يثبت أن خطة الحفظ سبقت خلاف الورثة، لا أن كل وصف كتبه أبي صحيح بالضرورة. الملكية أيضًا بقيت موزعة: أوراق المختبر للمختبر، ودفاتر نوال في عهدتها، ونسخ أبي ضمن ملفه. لم يجعل الصندوق حقوق أصحابها جزءًا من التركة، وسُجل ذلك بوضوح.

وجدنا النسخة الكاملة من التقرير الأولي للخبير الذي استعان به أبي. لم يحسم سبب الانهيار، لكنه أثبت وجود اختلاف يستوجب أخذ عينات رسمية، وحذر من إزالة الجزء قبل توثيقه. كان التقرير مؤرخًا قبل موت أبي بأسبوعين.

وفي ملف البلاغ وجدنا رقم الاستلام وتاريخه، ونسخة مما قدمه أبي. أرفق طلب المورد الذي يحمل توقيعه، وبرنامج العمل المضغوط، والتقريرين المختلفين، وإفادة بشير الأولى، وكشف التسوية وفاتورة «مدار» اللذين كانا مع نوال.

قلت لهدى:

ـ وضع توقيعه هنا أيضًا.

ـ نعم.

قلبت إلى آخر صفحة. كتب أبي تحت قائمة المرفقات:

> أطلب مراجعة الفرق بين ما وافقت عليه من بديل مشروط بالمواصفة، وما وصل إلى الموقع واستُخدم، وتحديد مسؤولية كل قرار بما فيها قراراتي المبينة في المرفقات.

لم تكن الجملة شهادة ببراءته. كانت تمنع موته من أن يصير ممحاة.

أما ملف الضمان، فاحتوى العقود التي رأيناها، وإقرار أمي القديم، وإيصالات أتعاب الخبير من حساب أبي. لم أجد مالًا مخفيًّا، ولا وثيقة تنقذ البيت.

قالت هدى:

ـ هذا يقوي طلب حفظ الموقع، ويثبت أن البلاغ سبق الوفاة وأن نسخته تضمنت ما يضر والدك كما تضمنت ما يدعم اعتراضه. لا يثبت وحده أن فارس أمر بالتغيير، ولا يحسم سبب الحادث.

أشارت إلى قائمة المرفقات. بعض البنود كانت صورًا فقط، وبعضها نسخًا مصدقة من مصدرها، وبعضها إحالات إلى أصول ما زالت عند المختبر

أو الشركة أو أصحابها. فقدان تذكرة حمزة بقي فقدانًا حقيقيًّا؛ الصورة تقود إلى السجل ولا تتحول إلى أصل لمجرد وجودها في صندوق أبي.

قالت إن قوة الملف ليست في ورقة خارقة، بل في أن كل سجل يشير إلى مصدر يمكن مراجعته مستقلًّا: المختبر يؤكد نتيجته، والبوابة تؤكد دخول الشاحنة، والموقع يحدد موضع الدفعة، والحسابات تبين مسار الدفع بقدر ما سجلته الشركة.

قال قاسم:

ـ لكنه يمنعهم من القول إن سالم اخترع القصة بعد أن مات محمود ليهرب.

ـ يساعد على ذلك، نعم. والحسم ليس لنا في هذه الغرفة.

بقي المغلف الذي يحمل اسمي.

سجل الموظف أنه منفصل وشخصي، ثم خرج مع الملفات التي ستبقى في حيازة هدى. نزل قاسم معه. بقيت وحدي مع هدى، وفتحت المغلف.

كانت الورقة قصيرة.

> يا نادر،

أردت أن أحميكم من قضية لم تختاروها، فسكت أكثر مما ينبغي. حفظت ما استطعت من مالكم، ولم أحفظ لكم حق الفهم. إن وجدت في هذه الأوراق حقًّا لأحد، فلا تجعله ثمنًا لاسمي، ولا تحمل خطئي لتبرئني منه.

سامحني فيما قصرت.

قرأت الرسالة مرة، ثم قلبت الورقة. لم يكن على ظهرها شيء. لا شرح للسنوات التي سبقتها، ولا جواب عن برنامج الدراسة الذي تركته، ولا جملة تقول إنه عرف كيف سيؤول كل هذا.

قالت هدى:

ـ أتركك؟

ـ لا.

جلست على الكرسي الذي كان أبي يستعمله حين بدأ الشركة. كان منخفضًا، يميل إلى اليمين، ويصدر صوتًا حين أتحرك. حاولت أن أتذكره هنا شابًّا، قبل المكتب الزجاجي والضمان والمشروع، فلم أستطع. كل صورة عندي له كانت أبًا، كأن حياته بدأت يوم ولدت.

شعرت بالغضب من الرسالة لأنها جاءت بعد فوات الكلام. كان يعرف أنه أخطأ في الصمت، ومع ذلك كتب اعترافه لورقة قد أصل إليها وقد لا أصل. تمنيت لو أنه دخل غرفتي مرة وقال الجملة نفسها بصوت يمكنني أن أعارضه.

تذكرت رسالتي الممسوحة عن ألم صدره، واعتذاري عن برنامج الجامعة من غير أن أطلب منه كشف الحساب كاملًا. لم يكن صمته خطأه وحده بالقدر نفسه، لكنه لم يكن جدارًا بناه وحده أيضًا. كنت أتعلم أن أطلب الوضوح بعد فوات الشخص الذي أردت منه أن يبدأ.

لم تريحني الفكرة. كانت المشاركة في المسافة بيننا لا تعيد إليّ فرصة قطعها.

قلت:

ـ الاعتذار لا يعيد شيئًا.

قالت هدى:

ـ لا.

ـ ولا يجعل قراره صحيحًا.

ـ لا.

ـ لكنه كتبه.

ـ نعم.

كانت تجيب بما يكفي، ولا تساعدني على تحويل الرسالة إلى غفران سريع.

طويتها وأعدتها إلى المغلف. حين نزلنا، كان قاسم ينتظر عند الباب. سألته لماذا وثق بأبي بعد أن اتهمه.

قال:

ـ لم أثق به كله. وثقت بأنه كتب الشيء الذي يضره، ثم أعطاني مفتاحه. أحيانًا هذا يكفي حتى تكمل الطريق وتبقي عينيك مفتوحتين.

سلمت المفتاح لهدى ليبقى مع سجل الصندوق. اتصلت بأمي وهالة، وأخبرتهما أننا وجدنا الرسالة والبلاغ والتقرير. لم أقرأ الرسالة عبر الهاتف. قلت إنني سأعود بها، وإنها تخصنا جميعًا بقدر ما تخصني.

قبل أن نغادر قلت لهدى:

ـ حين ترسلين الملف، لا تحذفي توقيع أبي ولا الجملة التي كتبها عن قراره.

أغلقت حقيبتها.

ـ هو نفسه لم يحذفها.

الفصل الثامن عشر

صباح الإزالة

اتصلت هدى في الخامسة وأربعين دقيقة صباحًا.

قالت:

ـ صدر توجيه مؤقت بألا يتغير موضع العينات حتى تتم معاينتها اليوم. ليس وقفًا نهائيًّا، لكنه يمنح الفريق وقتًا للدخول والتوثيق. المقاول كان سيبدأ في السابعة.

كنت مستيقظًا. لم أنم إلا ساعة، وبقيت رسالة أبي على الطاولة قرب سريري. أخبرت أمي وهالة قبل أن أخرج. قالت أمي إنها ستنتظر خبرًا، لا وعدًا.

وصلت إلى مبنى المرسى والضوء الأول ينعكس على الرافعات. كانت شاحنتان تقفان أمام البوابة، وخلفهما آلة كبيرة لإزالة الأجزاء المتضررة. العمال يرتدون ستراتهم وينتظرون التعليمات. لم يبدوا رجالًا جاءوا لطمس دليل؛ بدوا عمالًا جاؤوا إلى يوم عمل، وبعضهم ينظر إلى الساعة لأن أجره يبدأ حين تبدأ الآلة.

وجدت هدى مع نجلاء وفريق فني صغير. كان معهم ممثل عن الجهة التي تنظر في الطلب، وشرح للجميع أن العمل يتوقف في النطاق المحدد حتى تؤخذ العينات وتوثق السجلات. لم يقل إن أحدًا مذنب، ولم يذكر اسم أبي أو فارس.

اقترب مني عامل أعرف وجهه من كشوف الرواتب التي عرضها فارس. سأل إن كنت نادر سالم، ثم قال إن توقف الأمس خصم من أجره، وإن ابنه لا يأكل من عينات المختبر. لم أشرح له القضية. قلت إنني أعرف أن التوقف يضره، وإنني لا أملك أن أعده بأن الشركة ستعوضه. هز رأسه ومضى قبل أن أكمل.

لم يكن سماع الرجل جزءًا من ملف الإثبات، لكنه منعني من التعامل مع العمال الذين ذكرهم فارس كستار بلاغي. كانوا هنا، وأذى التوقف يصل إليهم فعلًا، حتى لو كان استمرار العمل قبل الفحص أذى من نوع آخر.

جاء فارس بعد دقائق، من غير سترته. كانت المرة الأولى التي أراه فيها بقميص مفتوح الزر الأعلى وشعر لم يسوّه بعناية.

قال لي:

ـ رفضت العرض أمس، وكان يمكنك أن تقول ذلك من غير أن توقف الموقع فجأًا.

ـ الرفض وصل إليك في موعده. أما حفظ الموقع فلا ينتظر بدء المعدات.

قالت هدى:

ـ الطلب قُدم قبل دخول المعدات لأن تغيير الموضع يسبق إمكان فحصه.

نظر إليها، ثم عاد إليّ.

ـ تعرف ماذا يعني يوم توقف آخر؟

ـ أعرف بعضه.

ـ لا تعرف. هؤلاء العمال لا يقبضون من مبادئك.

لم أجد جواباً يلغي الحقيقة في كلامه. قلت:

ـ ولهذا يجب أن ينتهي الفحص بسرعة، لا أن يختفي موضعه.

ابتعد، وأجرى اتصالاته.

◆

دخل الفريق من الممر نفسه الذي دخلناه مع بشير. لم يسمحوا لي بتجاوز المنطقة المخصصة للمراقبين. كانت نجلاء تطابق السجل والمخطط، ويضع الفنيون علامات على مواضع متفرقة، لا على الجزء الذي أشار إليه بشير وحده. سألتها لماذا.

قالت:

ـ نحتاج عينات للمقارنة، وإلا صار كل اختلاف بلا سياق. ولا نقف عند المكان الذي يقودنا إليه طرف واحد.

وصلت سيارة أجرة، ونزل منها حمزة يحمل هاتفه الحالي، وفي يده الأخرى حقيبة صغيرة فيها الهاتف القديم بكيسه المختوم وكيس النقود. حاول الحارس منعه، فتقدمت هدى إليه خارج البوابة.

قال:

ـ سعد اتصل بي ليلة أمس. طلب أن أمسح المحادثة، وقال إن الورقة أتلفت وإن الكلام عنها لن يفيدني. سجلت وقت الاتصال، ولم أرد بعد الجملة الأولى.

قالت هدى:

ـ هل سجلت المكالمة نفسها؟

ـ لا. كتبت ما سمعت فورًا، وهذا هاتفي الحالي؛ عليه سجل الاتصال.

ـ جيد أنك لم تضف ما لم يحدث. سنثبت تسليمه بالطريق الذي اتفقنا عليه.

رآني حمزة، فتوقف. لم يقترب حتى أشرت له أن يأتي.

قال:

ـ لا أطلب منك شيئًا. جئت لأن حذف الصورة صار هو المطلوب الآن، وهذا يعني أنها لم تكن ورقة عادية.

قلت:

ـ سلم ما عندك لهدى، ولا تعدني بإصلاح سريع.

ـ لن أعد.

أشرت إلى كيس الهاتف القديم المختوم.

ـ سلّمه كما هو، وقل في إفادتك إنك فتحت الدرج لسعد.

ـ سأقول.

بعد ساعة ظهر بشير عند البوابة. لم يحمل عكازه هذه المرة؛ كان يسير ببطء، ويده على فخذه المصابة. وقفت هدى أمامه وسألته إن كان جاء بإرادته.

ـ نعم. لن أتكلم أمام الناس كلهم. أريد أن أعرف أين أقول إفادتي، ومن يطلع عليها، وما الذي يمكن فعله إذا ضُغط على ابني.

قالت إنها لا تضمن له حماية من كل أثر، لكنها ترتب له أن يأخذ مشورة مستقلة، وأن يدلي بما يختاره في المكان المخصص.

نظر إليّ.

ـ أنا ما زلت خائفًا.

ـ أعرف.

ـ ولم يتغير ما قلته عن محمود.

ـ اكتبه كما حدث، ولا تزد من أجلي أو من أجل أبي.

هز رأسه، وبقي خارج الموقع حتى استدعاه الفريق ليدلهم على الممر والسجل.

وصلني أثناء ذلك إشعار جديد من الممول يطلب ردًّا على وضع الضمان. صورته وأرسلته فورًا إلى المجلد العائلي، ثم اتصلت بأمي. لم أؤجل الخبر إلى ما بعد انتهاء الفحص، ولم أقل لها إن كل شيء بخير. قلت إننا حفظنا الموقع مؤقتًا، وإن خطر البيت ازداد خطوة. قالت إنها ستقرأ مع هالة وتنتظر عودتي.

◆

قرب الظهر انتهى أخذ العينات. وُضعت في عبوات مرقمة، وسجل كل من تسلمها. وصلت إلى هدى في الوقت نفسه إفادة من المختبر تؤكد وجود النسختين وتاريخيهما، من غير أن تحمل ليان وحدها تفسير ما حدث.

قال ممثل الجهة إن الجزء المحدد سيبقى بلا تغيير حتى تظهر نتيجة أولية ويُقرر ما بعد ذلك. احتج فارس على اتساع النطاق، وسجل اعتراضه. لم يصرخ، ولم يحاول تشغيل الآلة بالقوة.

حين مر بي قال:

ـ أبوك مات قبل أن يرى شركته تتوقف بسببه. أنت ستراها.

قلت:

ـ وضعت توقيعه في الملف قبل توقيعك.

توقف.

ـ تظن أنك عادل لأنك ضحيت باسمه قليلًا لتأخذ اسمي كله.

ـ لا آخذ اسمك. أطلب أن يُعرف من اتخذ كل قرار.

ـ والكلفة؟ من يكتب اسم من يدفعها؟

نظر إلى العمال الواقفين عند السياج. لم يكن لدي جواب يخرجهم بأجورهم. قلت:

ـ تكتب أيضًا.

مضى.

بدأ العمال يفكون بعض المعدات التي لن تستخدم ذلك اليوم. أطفئت الآلة الكبيرة، وساد الموقع هدوء يشبه الصباح الأول بعد الحادث. لم يصفق أحد، ولم تقل هدى إننا انتصرنا. كان ما حصل أضيق من النصر وأثقل: بقي المكان كما هو يومًا آخر، كي يستطيع أن يتكلم.

الفصل التاسع عشر

لا أبيع صمتي

ظهرت النتائج الأولية بعد اثني عشر يومًا. لم تقل إن مادة واحدة قتلت محمود، ولم تحسم المسؤولية. قالت إن عينات من الجزء المنهار لا تطابق في خصائصها ما حُدد في مستندات المشروع، وإن اختلاف التقارير وحركة التوريد يحتاجان إلى مراجعة أوسع.

كان ذلك كافيًا لبقاء الموقع محفوظًا، ولفتح مراجعة تشمل المورد والمختبر وقرارات الشركة. ولم يكن كافيًا لاتهام فارس بحكم نهائي.

أظهرت مراجعة أولية لسجلات «متانة الساحل» أن الشركة كانت قائمة فعلًا وليست اسمًا مختلقًا، وأنها اشترت مواد من أكثر من مصدر. أما «مدار الخدمات»، فثبت وجود تعامل بينها وبين المورد، وبقيت صلة عدنان وطبيعة الخدمة محل طلبات أخرى. كلما ظهرت حقيقة، أغلقت باب مبالغة وفتحت باب سؤال أدق.

لم يقل التقرير إن فارس قبض مالًا، ولم يمحُ احتمال أن يكون تغيير المادة جرى في مستوى أدنى. لكنه جعل تفسير «خطأ عامل دخل وحده» أضيق من أن يحمل الوقائع كلها.

وصلتني في اليوم نفسه رسائل من موظفين في الشركة؛ بعضهم شتمني، وبعضهم طلب أن أتنازل كي تعود المشاريع. لم أجب عن الاتهامات واحدًا واحدًا، ولم أحظر أصحابها. أرسلت بيانًا قصيرًا لمن سأل: الفحص جارٍ، وبيع الحصة ممكن إذا فُصل عن إغلاق المطالبات، ولا أملك وعدًا بحفظ كل وظيفة. لم يحب أحد الجواب، لكنه كان كل ما أستطيع قوله بصدق.

في تلك الأيام وصل إشعار آخر بشأن الضمان. رفض الممول الانتظار بلا خطة، وطلب سدادًا أو ترتيبًا جديدًا خلال مدة قصيرة. عرض فارس بقي على الطاولة، لكنه حذف منه المهلة السابقة ووضع بدلها شروطًا أشد.

قالت هدى:

ـ لا يلزم أن تبيع اليوم، لكن عدم البيع له ثمن صار واضحًا. وقد نحتاج إلى بيع البيت بأنفسكم بدل أن تنتظروا إجراء لا تختارون توقيته.

اجتمعنا في البيت. اقترحت أمي أن نعرضه للبيع بسعر نختاره، ونسدد ما يلزم قبل أن يصير القرار في يد غيرنا. اعترضت هالة أولًا، ثم طلبت يومًا لترى شققًا قريبة من حي الميناء القديم.

قالت أمي:

ـ خسارة البيت ليست خيرًا في نفسها. لا تقولوا بعد سنوات إننا أحببناها. نحن نختار طريقة الخسارة لأن البديل أسوأ.

لم نحول القرار إلى تضحية جميلة. بكينا في الغرف التي سنتركها، واختلفنا على الأشياء التي ستنتقل معنا، ثم وقعنا عرض البيع حين وجدنا مشترًيا يمنحنا وقتًا كافيًا للخروج.

◆

طلب فارس اجتماعًا أخيرًا في مكتبه، بحضور هدى ومن يمثل بقية الشركاء. كانت على الطاولة نسخة من التقرير الأولي، وعرضه، ومحضر يطلب حفظ سجلات الشركة إلى أن تنتهي المراجعة.

قال فارس:

ـ ما زال بإمكاننا الفصل بين الأمرين. يبيع الورثة الحصة، نعالج الضمان، وتستمر المراجعة من غير أن تبقى الشركة مشلولة.

قالت هدى:

ـ العرض لا يفصل بينهما. ما زال يطلب تسليم النسخ وسحب الاعتراض على تسويات مرتبطة بالحادث.

نظر إليّ.

ـ عدلنا ما يكفي. ماذا تريد؟ أن أكتب أنني قتلت محمود؟

ـ لا.

ـ أن أتنحى؟

ـ ليس قراري وحدي.

ـ إذن قل ما الذي جئت به.

فتحت الملف أمامي. لم أقرأ خطابًا. قلت ما استطعت أن أقوله في جمل قصيرة.

ـ أبي وافق على استعجال العمل وعلى مورد بديل، وتأخر في التحقق. هذا في الملف. حمزة باع طريق الوصول إلى ورقة، وليان غيرت تقريرًا، وبشير أرسل محمود إلى الممر. هذا أيضًا في الملف. وهناك حمولة لم تطابق الطلب، وتقرير تغير، ومال خرج إلى جهة مرتبطة بدائرتك، ومحاولة لإغلاق مطالبة محمود قبل اكتمال الفحص. لا أطلب حذف خطأ أحد، ولا أقبل أن يحمل أحد الخطأ كله.

قال فارس:

ـ كلام جميل. لكنه لا يدفع دينك.

ـ أعرف.

ـ وستبيعون البيت.

ـ بدأنا ذلك.

ظهر على وجهه شيء بين الدهشة والغضب.

ـ تخسر بيت أمك كي يبقى ملف مفتوحاً؟

ـ لا نخسره من أجل الملف وحده. البيت داخل في ضمان صنعته قراراتكم القديمة، ونحن اخترنا ألا نبيعه لك مع صمتنا.

دفعت العرض نحوه.

ـ يمكن أن نتفاوض لاحقًا على الحصة بسعرها، من غير إغلاق المطالبات ومن غير سحب الأوراق. أما هذا فلن نوقعه.

قال أحد الشركاء إن الشركة قد لا تصمد. أجابت هدى أن بقاءها يحتاج إدارة الخطر وكشفه، لا إزالة موضعه. لم يتحول الاجتماع إلى محكمة. سُجل رفضي، وسُجل اعتراض فارس، وأُقر حفظ السجلات المطلوبة إلى أن تتضح المراجعة.

حين انتهى الآخرون من التوقيع، قال فارس:

ـ سالم كان سيجد طريقة لا يخسر بها كل شيء.

قلت:

ـ ربما. وكان يمكن أن يخطئ مرة أخرى.

ـ صرت تتكلم عنه كأنه واحد من موظفيك.

ـ صرت أتركه إنسانًا.

بقي جالسًا حين نهضنا. عند الباب ناداني.

ـ يا نادر، هل تظن هؤلاء سيبقون معك حين ينتهي الأمر؟ سمية ستأخذ مالها، وبشير سيبحث عن عمل، وحمزة قد يخونك مرة أخرى. ستبقى أنت بخسارتك.

التفت إليه.

ـ لم أفعل هذا ليبقوا معي.

لم أقل أكثر. كان فيَّ غضب على فارس، ورغبة في تبرئة أبي، وخوف من أن أبدو جبانًا أمام قاسم؛ ولم يمحُ القرار شيئًا من ذلك.

في الخارج سلمت هدى الملف الكامل عبر الطريق الذي بدأته، بما فيه اعتراف حمزة، وسجلات نوال، وتقرير المختبر، وتوقيع أبي. رفضت اتصال صحفي وصلها من شخص عرف بتوقف الموقع، وقالت إن التحقيق ليس مادة لتصفية سمعة قبل أن تظهر نتائجه.

ذهبت بعدها إلى سمية. كانت قد رفضت صيغة التسوية الواسعة، وقبلت مساعدة مؤقتة وصلت عبر مسار منفصل لا يطلب منها التنازل. قالت

إنها لا تعرف هل ستصبر إلى النهاية إذا طال الأمر سنوات، ولا تريد من أحد أن يجعل ترددها نقصًا في وفائها لمحمود.

قلت لها إنني لا أطلب منها قرارًا يخدم قراري. أعطيتها نسخة مما يخص مطالبتها، وتركت لها رقم هدى. خرجت من غرفتها وأنا أعرف أن بقاء الملف مفتوحًا لا يمنحني سلطة على الطريقة التي يحفظ بها كل صاحب حق نفسه.

عدت إلى البيت. كان رجل يثبت لوحة «للبيع» على الجدار الخارجي. سألني عن الموضع المناسب، فأشرت إلى جانب الباب المتراخي.

لم أصلحه تلك الليلة.

الفصل العشرون

الباب المفتوح

بعد ثمانية أشهر، لم يصدر حكم ينهي الحكاية.

أكد الفحص أن جزءًا من المواد لا يطابق ما نصت عليه أوراق المشروع، وثبت أن التقرير عُدل بعد نتيجته الأولى. بقي السؤال عمن أصدر كل توجيه، وما مقدار أثر كل قرار في الانهيار، أمام مراجعات لم تكن سريعة. أُبعد فارس عن الإدارة اليومية للمشروع مؤقتًا بقرار الشركاء والجهة الممولة، لكنه ظل ينكر أنه أمر بتغيير المادة أو التقرير، ولم يصدر عليه حكم نهائي.

الشركة نفسها صغرت. انتقلت بعض عقودها إلى جهة أخرى، وفقد موظفون أعمالهم، وبقي آخرون. كلما سمعت باسم واحد منهم تذكرت سؤال فارس عن الكلفة. لم يعد السؤال حجة تغلق الحق، لكنه لم يكن كذبة أيضًا.

بعنا البيت قبل أن تنتقل السيطرة على بيعه إلى غيرنا. سددنا الجزء الأكبر من الضمان، وانتقلنا إلى شقة أصغر في طرف حي الميناء القديم. اختارت أمي شرفة ترى منها طرف البحر بين بنايتين، وقالت إن هذا يكفيها.

أخذت هالة مقبض الباب القديم بعد أن استأذنت المشتري، ووضعته في صندوق أدواتها. لم تسخر أمي منها.

في أول ليلة في الشقة الجديدة، وضعنا الملفات العائلية في خزانة واحدة، ولكل واحد منا مفتاح. كان اقتراح هالة. ضحكنا لأننا لم نعد نحتمل مفاتيح أخرى، ثم نفذناه.

حصلت سمية على مبلغ مؤقت من مسار لا يشترط إسقاط مطالبتها، وبقي طلبها الأصلي قيد المراجعة. استمرت في الخياطة، وسددت قرض الآلة قبل موعده بشهر. لم تسمح لي أن أدفع ما بقي عنها.

قدم بشير إفادته في موضع اختاره بعد أن تلقى مشورة مستقلة. خسر عقدًا كان يرجوه، ثم عمل في الإشراف على مخزن بعيد عن مواقع البناء. حين رأيته قال إن الخوف لم يذهب، لكنه صار يعرف ماذا يفعل وهو موجود.

أكدت ليان سجل المختبر، وبقي اسمها في موضع التغيير الذي وافقت عليه. لم تُطرد، ولم تخرج بلا مساءلة. أما نوال فوجدت عملًا في متجر توريد بحري، وصارت ـ كما قالت لي ـ لا تنفذ قيدًا عاجلًا من غير أن تكتب اسم من استعجلها.

أغلق حمزة الورشة شهرين بعدما عجز عن الإيجار، ثم نقلها إلى محل أصغر. أعاد المال الذي أخذه من سعد عبر الترتيب الذي وضعته هدى، وواصل سداد قرض الورشة. لم نعد صديقين. حين جاء إلى المكتب مرة ليسأل عن ورقة، شرحتها له، ثم طلبت منه أن يحجز في المرة التالية مثل غيره.

قال:

ـ هذا يشبه الأستاذ سالم.

قلت:

ـ لا. هذا يشبه ما أستطيع أنا أن أفعله.

هز رأسه، ولم يحاول إكمال المقارنة.

◆

بقي مكتب أبي القديم خاليًا بعد أن نقلت الشركة أعمالها. استأجرته من المالك بسعر منخفض مساءين في الأسبوع، لا لأدير شركة ولا لأكمل حياته. وضعت على الباب لوحة صغيرة: «مساعدة في فهم المطالبات والعقود ـ بموعد». كنت أعمل في وظيفتي نهارًا، وأجلس هنا بعد العصر لمن يحمل ورقة لا يعرف من أين يبدأ بها.

جاءني في الأسبوع الثاني صاحب متجر طلب أن أتصل بصديق لأبي في البلدية كي يتجاوز رسمًا تأخر فيه. قال إن أبي كان يسهل أمور الناس. رفضت الاتصال، وشرحت له نموذج الاعتراض ومكان تقديمه، ثم ساعدته في ترتيب مستنداته. خرج غاضبًا لأن الطريق النظامي أبطأ مما يريد.

في اليوم التالي عاد، وقال إن الطلب قُبل للمراجعة. لم يشكرني. وضع إشعار القبول على الطاولة، وسأل عن الخطوة التالية.

في الشهر الأول تركت الباب مفتوحًا طوال الوقت، فدخل الناس في كل ساعة، واتصلوا بي في أيام العمل، وتأخرت مرتين عن موعد مع أمي. قالت هالة إنني لم أتعلم شيئًا؛ استبدلت ملفات أبي بملفاتي.

وضعت ساعات واضحة، ورقمًا للمواعيد، وكتبت أن الحالات العاجلة تُشرح في رسالة قصيرة. وإلى جانب اللوحة ثبتُّ ورقة تبين ما أستطيع فعله، وما يحتاج إلى محامٍ أو جهة أخرى. كانت هدى تستقبل ما يدخل في اختصاصها، وترفض ما لا تستطيع حمله.

احتفظت أمي وهالة بالدخول إلى جدول المواعيد لأننا اتفقنا ألا يعود العمل عذرًا للغياب الصامت. إذا تأخرت أخبرتهما، وإذا كان الموعد قابلًا للنقل نقلته.

زارني قاسم مرة واحدة. شرب كوب شاي، وسأل عن أمي، ثم قال إنه لا يريد أن يصير واحدًا من أصحاب المكتب الدائمين. خرج قبل أن يبرد الشاي في كوبه.

كانت الساعة تقترب من السابعة، وموعدي مع أمي بعد نصف ساعة. أغلقت الملف الأخير، وأرسلت إليها أنني خارج في موعدي. أجابت بصورة إبريق الشاي على الطاولة.

جاء طرق خفيف على الباب. نظرت إلى دفتر المواعيد؛ لم يبق اسم بعد السابعة. جاء الطرق مرة ثانية، ثم صوت رجل يقول إنه يحمل ورقة فصل من العمل، وإنه لا يعرف هل يوقع استلامها.

قلت إن لدي عشر دقائق الآن، وإن احتاج الأمر أكثر حجزنا له صباح الغد. شكرني، وبقي ينتظر في الممر.

أغلقت دفتر المواعيد، وحملت قلمي.

ونهضت أفتح الباب.

تمّت

حديث القريب الهَيِّن اللَّيِّن السهل

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أخبركم بمن يحرم على النار، أو بمن تحرم عليه النار؟ على كل قريب هَيِّن لَيِّن سهل».[1]

---

١. رواه الترمذي (2488)، وقال: «حديث حسن غريب». وحكم عليه الألباني بأنه صحيح لغيره في «صحيح الترغيب والترهيب» (2676).